خير الدين الزركلي

شـاعـر الوطـن

ندوة الأربعاء الثقافية الشهرية

(الأولـى)

خير الدين الزركلي

شـاعر الوطـن

إعداد وتوثيق:

د. إسماعيل مروة

أ . نزيـه الخـوري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

خير الدين الزركلي شاعر الوطن / إعداد وتوثيق إسماعيل مروة، نزيه الخوري . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧ . - ١٨٤ ص ؛ ٢٤ سم

مشروع ندوة الأربعاء الثقافية الشهرية - الأولى

١ - ٩٢٨ : الزركلي، محمد خير الدين م ٢ - ٨١١,٩٥٦١ ز ر ك خ

٣ - العنوان ٤ - مروة ٥ - الخوري ٦ - الزركلي

مكتبة الأسد

مُقَدِّمَة

يمثل الحراك الثقافي المؤشر الجدي لتطور أي مجتمع، ويمثل كذلك الحصن القادر على تجنيب هذا المجتمع الكثير من المشكلات.. وأي مجتمع يعاني من مشكلات، فليبحث المعنيون فيه عن الفراغ الثقافي والفني والروحي، لأنه عند غياب الامتلاء ثقافة وفناً وروحاً سيكون المجال مفتوحاً على مصاريعه لأي فكر هجين أو غريب لسدّ الفراغ..

من هنا كانت الخطة الثقافية الطموحة التي أرادها السيد وزير الثقافة الأستاذ محمد الأحمد، حيث عكف منذ البداية على استنهاض مجموعة من الأنشطة الفاعلة، وعلى أكثر من صعيد ثقافي وفني..

وجاءت ندوة الأربعاء الثقافية الشهرية ضمن هذا المشروع، وقد أعطى السيد الوزير ثقة ودعماً غير محدودين لإنجاز ندوات ذات سوية مقبولة ضمن الظروف الحالية، والأمل يحدوه ويحدونا لإنجاز شيء مهم في خضم الأحداث، لتحدي الحرب التي تشن على سورية، وجاءت ندوة الأربعاء، كل ثالث أربعاء من كل شهر خطة محكمة لمدة عام كامل، تستدعي موضوعاتها شخصيات أدبية سورية كان لها الفضل في التأسيس لثقافة سورية وعربية في مراحل

سابقة، أو في المرحلة الحالية، وقد اختار السيد الوزير أن تكون مكتبة الأسد الوطنية بدمشق الحاضن لهذه الندوة، لما تحمله من دلالات ورمزية للثقافة..

خير الدين الزركلي ... البداية.

أرتأت الخطة أن تكون الندوة الأولى (خير الدين الزركلي – شاعر الوطن)، وفي هذا الاختيار رد اعتبار لشاعر وطني من الطراز النادر والفريد، ظلمه ذووه، فعاش غريباً، ومات غريباً، ودفن بعيداً.. ولأن الزركلي كان من مؤسسي المدرسة الشعرية الشامية، ولأنه أخلص للوطن كما لم يفعل كثيرون، وقع الاختيار على أن تبدأ الندوات به، لعلنا نتمثل ببيته الفريد في الشعر العربي:

لو مثلوا لي موطني وثناً   لهممت أعبد ذلك الوثنا

وللإعداد لهذه الندوة، تم اختيار حوار مطوّل أجرته السيدة الدكتورة الأديبة المبدعة نجاح العطار، وذلك عام ١٩٦٩ في بيروت، ولأن هذا الحديث فيه من التفرد ما فيه، تم استئذان السيدة الدكتورة نجاح العطار بأن يكون ضمن الأبحاث المطبوعة عن الزركلي..

والمحاور الأخرى كانت:

١ - ساعتان في حضرة الزركلي، وقد قدّمه الباحث الشاعر أحمد المفتي، وهو من اعتنى بشعره وديوانه، وهو صاحب الذائقة العالية.

٢ - كتاب الأعلام وقراءة في تاريخه ومنهجه، قدمه الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار، أستاذ الأدب بقسم اللغة العربية.

٣ - قراءة فنية في شعره قدمها الدكتور حسن الأحمد أستاذ النقد القديم بقسم اللغة العربية.
٤ - تطوافة على حياته وجهوده، قدمها الدكتور اسماعيل مروة مدير الندوة.
٥ - مختارات من شعره، وذلك نظراً لعدم وجود ديوانه وندرته، عملنا على إضافة مجموعة من أشعاره المختارة.

الزركلي شاعر وطني بامتياز، ويذكر لوزارة الثقافة السورية ووزيرها أنها احتفت به وكرمته أول مرة بعد رحيله بأربعين عاماً، وتتوج هذا التكريم بكتاب تذكاري.

نرجو أن يبقي الزركلي حاضراً في الوجدان، ومعلماً من معالم الوطنية.

الشكر لكل من دعم هذه الندوة وآزرها، أولاً السيدة الدكتورة نجاح العطار التي لم تبخل بنصح وتوجيه أو بعلم وجهد وحضور، وتالياً كل من أسهم وتابع وشكّل حضوره إضافة.

أما الشكر الذي لا ينقضي فهو للسيد وزير الثقافة الأستاذ محمد الأحمد الذي يرى في الثقافة ما لم يره سواه.

تحية لروح الزركلي الشاعر الوطني

وكل التقدير لشعره وإبداعه وجهوده

ولنتمثل شعره ودوره وحبه لشامه.

الزركلي شاعر الوطن والغربة والحنين

الدكتورة نجاح العطار

أضاعته بلاده، وأضاعها هو، خسرته شاعراً،
وخسرها شعراً، وتخلَّدت من حياته فترة التطلّع
والنضال ... كل شيءٍ له ثمن، وربما كان أثمن
ما يجنيه الشاعر، في انكسار الأنانية وعظم التضحية،
أغانيَ تتخلّد، وتكون الطموح والزهو والتأبيّ ...

كان رائداً وضحية !

ذاك الذي عطَّر دمشق بالحنين، وظلَّ قلبه، على البعد ينبض شوقاً معلقاً بالنيربين وبردى والغوطة ...

ونهتف من عجب ؟ لا، زارا قبلنا هتف :« الرائد يا إخوتي على الدوام ضحية !».

وقبل زارا كانت هتافات ...

كانت ريادات وتضحيات، وستبقى !

- من كتاب حديث الشعر .

فالمذبح يتسع، والقرابين نذور ومن راد نذر، وكان يعرف فراد ونذر، وتلك مأثرته، هذا الذي – كما قال زفايج عن هولدرلن – «اختفت صورته في ركام النسيان أعواماً وعقوداً، كما يختفي تمثال إغريقي في حضن الأرض».

غير أن التمثال، في الكشف عنه، يحتاج إلى جهد ينطوي على الحب وقد أحسست أنني أملك هذا الجهد، وعليَّ أن أبذله لأستخرج من عالم النسيان إلى ذاكرة الناس، صورة شاعر كان إشراقةً غمرتها الظلمة، وكان حلماً لبَّى نداء الخيال، عبر فواصل الزمن، وارتحل بعيداً ووحيداً، ولم نصرخ نحن :«أوقفي الركب يا رمال البيد» رغم أنه على طريق البيد سار ....

ترانا لم نخشَ عليه ؟ ربما، وربما خشينا فسكتنا، تركناه للفلاة ولا دليل، وللهجير ولا لثام، سلاحه قلم، وقلمه سيف، خافه«الباب العالي» على السين لا البوسفور هذه المرة !، فأصدر عليه حكما بالإعدام، حمله الشاعر وساماً ومضى ....

ولم نسمع نحن رجع القرار للمزاهر التي على مشارف البيد، والمغيب حرائق أرجوانية، تحدو قافلة الشاعر في طريقه إلى المنفى الذي اختـار .

ولا احتجنا في تذكيره بوطنه، إلى ما احتاجه الذين سعوا بحفنة من تراب الوطن إلى شوبان يوماً .... كان وطنه في قلبه، وكان قلبه، على بعد المزار، مزاراً تتقد فيه جمرة، وتسمع تراتيل، وترى دموع.. أما غناؤه فقد صار حنيناً، وظل حنينا.

ريانــــةٌ بالـــــدمع أقلقهــــا **ألاّ تحــسّ كــرىً ولا وســنا**

كانــت تــرى في كــلِّ ســانحةٍ **حــسناً وباتــت لا تــرى حــسنا**

والقلــب لــولا أنّــة صــعدت **أنكرتــه وشــككتُ فيــه أنــا**

ليــت الــذين أحــبُّهم علمــوا **وهــم هنالــك مــا لقيــتُ هنــا**

مــا كنــت أحــسبني مفــارقهم **حتــى تفــارق روحــيَ البــدنا**

والذين أحبهم الشاعر آنذاك جهلوا ما لقي في غربته، لكنهم علموا ما فعل خلالها، لأن كلماته، لأجلهم، كانت تبلغهم، وكانوا يتناشدونها ويتناقلونها بتعبيرٍ آخر، كانوا معه لأنه كان معهم ... غير أن الذين في القيد يصعب عليهم أن يمدوا أيديهم للمصافحة.

دمشق كانت في القيد غير قادرة على المصافحة ولا المساعفة، وكان خير الدين الزركلي يعرف ذلك، ومن أجله عذر، وحنا، ومسح على الجراح، واستنهض الهمم، وتعذب ...

وطال عذابه لأن عذابها طال، ولأنه، قبل أن يذهب إلى المنفى، عرف معها، هنا، قسوة الحياة في ظل السيطرة العثمانية، كما عرف، وشهد بنفسه، تصدُّع الأرض تحت أقدام المسيطرين .

كانت الجمعيات العربية المطالبة بالاستقلال، تعمل سراً ... وكان أحرار العرب، داخل البلاد وخارجها، يتنادون ويجتمعون، والشعب الذي طال رقاده يتململ ويستيقظ، والحرب العالمية الأولى تدور، والشباب يُنتزعون من البيوت ليكونوا جند الدخيل، والأموال تُصادر، والمستنيرون يُنفون، والجهل يعم نتيجة قرون من التجهيل، وقلة ممن أخذوا بنصيب من الثقافة يتولون الريادة، ويكافحون

بسذاجة، سلاحها كليل، ودهشتها كبيرة، وتطلعاتها، مع ذلك، بشائر نصر....

إنما للنصر ثمن لابد أن يُؤدى ...

والسلطة العثمانية الرعناء تسرعت في تقاضيه . تسرعت إلى درجة أن البطش الدامي الذي فتحت سوقه، قد أرغمت على أن تكون شارية فيه أيضاً.

إن دفع الأشياء إلى نهاياتها يولد ما يلي تلك النهايات : التغيير!

وكان نداء الثأر الذي انطلق من الحجاز، بدايته : الثورة العربية الأولى، الثورة التي، كليلة القدر، انتظروها، وعلى رمال الصحراء سبحت الصافنات إليها، وعادت معها، حاملة للعرب حريتهم من الاحتلال العثماني.

الزركلي، يومها، في الشباب كان، ومثله حماسة وفداء، وكانت دمشق التي عانت من ظلم الأتراك طويلاً، تضحك بعد عبوس، وتصفق للحرية التي على أبوابها دقت، وتبني، كسواها، آمالاً عراضاً...

لكن الآمال العراض ستخيب خيبةً عريضةً وسريعة، فالعالم العربي الذي زحزح عن صدره جبلاً، قد كان عليه، وشيكاً، أن يلقى جبلاً، أن يكون فريسةً للحلفاء، كما كان ضحيةً للأتراك ... لقد شحذ الجزارون المدى، وتحت معاهدة سايكس - بيكو خبؤوها، واقترعوا، سلفاً، على قميص الوطن الذي على خشبة احتلالهم سينزف.

إن قرننا يحب الدماء . وسيخوض الناس فيها طويلاً قبل أن يبلغوا ضفة الجلاء وحتى بعد أن يبلغوها ... وستنصرم خمسة وسبعون

عاماً، ويظل الموقد الذي التهم شباب القرن، وشباب أبنائه، موقداً مفتوحاً ... فالفجر المشرق الذي أطلَّ عقب خروج الأتراك، قد زايله الشروق سريعاً . اربد بما حملته الرياح من غيم تصاعد من جهة البحر، والأيقاظ الذين شرعوا بفتح النوافذ لاستقبال شمس الصباح، وجدوا أنفسهم في الضحى، مطالبين بأن يناموا ثانية، أو يتلبثوا حيث كانوا، محاصرين بأكثر من عدوّ،

مترصدين بأكثر من خيبة أو فجيعة ..والبرعم الذي تفتّح على واقع الثورة، ووعى أنه يمثّل شيئا خاصاً ومميزاً، وأن القوقعة التي تحيط به قابلة للتحطيم، تصوَّح وذبل ..

لم تبقَ سوى بذرة البطولة وحدها، الكامنة في جوف الأرض، حبة قمح تحت ركام من الثلج، تجاهد لتنمو فتعطي ثمراً طيباً .

غير أن الثمر الطيب كان في بستانٍ شوكه رصاص، وكان الغدر رصاصاً آخر، فالمواجهات الأولى قاسية، والتجربة جديدة، يخوضها شعبٌ تحمَّل الكثير، وهو غير مؤهل بعد لصدام مباشر يحقق له النصر، ذاك الذي في لوحة العشرينات القاتمة، كان نقطة ضوء في قاع صحراء من الظلمة .

لقد تقلَّص المدُّ الاستعماري التركي، غير أن مدّاً استعماريا آخر تلوح نذره في الجو ويكون على الأبرياء العزّل أن يحتشدوا ثانية، في وجه عدوانية القرن العشرين ..باريس تغزو دمشق، وفرنسا«الثورة» تخنق الثورة في مهدها، وتصمم على اغتيال الإنسان العربي.. ومعارك ميسلون على المشارف.. التقسيم ؟ والانتداب أو الاحتلال ؟ وأحلام الحرية والبناء و السلام ؟ من يصدّق؟ كلها تهاوت في أيام، واختال

الدخيل في شوارع دمشق، على أشلاء الضحايا، هذه التي ينهض الزركلي ليهتف باسمها، في سمع العالم العربي:

فيمَ الونى وديار العرب تقتسم

أين العهود التي لم ترع والذممُ

هل صح ما قيل من عهد ومن عِدةٍ

وقد رأيت حقوق العرب تُهتضَمُ

ما بال بغداد لم تنبس بها شفة !

وما لبيروت لم يخفق بها علمُ

نسجو على الضيم والأطماع حائمةٌ

ونكظم الغيظ و الأكباد تضطرم

وتبقى هتفة الزركلي بغير صدىً، في بغداد وفي بيروت على السواء .كلماتها خميرة، ولكن عجين الثورة لا يختمر بالسرعة التي نريد، والشعب في قهر الاحتلال، وضلال القيادات، يمضغ حقده استعداداً لليوم الآتي..

ولكي لا يأتي ذلك اليوم يعمل المحتل على انتزاع الخمائر من جبهة الفكر، بمثل ما يعمل على انتزاع الألغام من جبهة معركة .إنه يعرف، بحكم التجربة، ماذا يعني الصوت المبشر بالعاصفة .

باريس، لا بغداد ولا بيروت، ترجع صدى هتفة الشاعر، تهديه حكماً بالإعدام يضطر معه إلى الرحيل عن الأرض التي أحب .ومنذ رحيله يحتضن الشاعر أرضه، يحملها معه مدى أكبر، وحنيناً تسترجعه

منه شعراً يؤرق ويهز ويلفح.. ومن فلسطين والأردن والحجاز، ثم الأردن ومصر، يتابع نضاله بسلاح الكلمة التي يرى فيها الناس آنذاك، رؤاهم وأحلامهم وقضيتهم، فيحفظونها وينشرونها ... وكذلك يحفظها المحتلون، ويحاسبونه عليها. يصدرون عليه، بعد خمس سنوات، حكماً آخر بالإعدام، حكماً لم يُنفذ والمحكوم بعيد، لأنه ليس للتنفيذ بل للإرهاب، للتشفي، للإمعان في ممارسة القهر، لرجم القمر العالي بحجارة واطئة محنقة، ولتجديد الإنذار للشاعر الذي جسد ثورة الوطن، وحنينه وأشواقه وعذاباته، وصار ناياً يؤنس ليالي المسهدين، ويهدهد نزع الشهداء ...

حكمان بالإعدام في سنواتٍ خمس؟ وماذا يهم ؟ ..فالذي اقتحم عالم الشعر من باب النضال، وانطوت في رؤى شبابه أحلام الحرية والنهضة والتقدم، كان يؤمن بأن الإنسان لم يُخلق ليُقهر، وأنَّ القوة، أيّ قوة، عاجزة عن قهره، وأنَّ عليه أن يتلمس الطريق مهما اشتدت الظلمة، ومهما أمعن العدوان في كبت الجانب المضيء من النفس.

في كيانه الأخلاقي، اتحد الشاعر والمناضل و الطَّليعيّ، واندغم العام بالخاص، وغدا الوطن الذي نماه قضيته، ينبثق عنها الشعر أشواقاً وأنات، وهتافات للثورة، ودعوات للتمرد على الواقع الجامد المتهافت، عاراً تخلّف من الماضي، من نفايات مراحل الانحطاط، فكراً وخلقا.

وحين سعيتُ إليه في بيروت، خُيّل إليَّ أنَّ الشاعر الكبير ينبعث من قلب التاريخ، وأنني، في جلوسي إليه، أجلس إلى التاريخ نفسه، وأقلب، مع كلماته، صفحاته ..أراجع الأعوام، وأعود، مع الذكرى،

إلى عهد الشباب، شبابه هو، ذاك الذي، من خلف الملامح المتغضنة الشائخة، أستبينه فلا يبين، كأنه لم يكن يوماً ...

سعيتُ إليه وفي خاطري صورة له منسوجة من غزل أشعاره .

تهيبتُ الدخول، تهيب الكلام، رغبت عنه .كان يكفي أن أراه، هذا التمثال الإغريقي كما قال - زفايج –على قاعدة نصبه البيتيّ، وأتأمله، وأستحضر رؤايَ عنه.

التمثال الحيّ، للشاعر الشيخ، كان حيّاً وحيويّاً . كان فرحاً، ربما، مثلي، ومتأثراً إلى حدّ كبير . ولكي يُداري تأثّره، أنشأ يتكلم، يرحب، يبتسم ..ويلقي الأسئلة عليّ، أنا التي جئتُ لألقيها عليه.

الشام ؟ وكيف هي الآن، كيف الشام يا ابنتي ؟ حدثتُه عنها .. كان يسمع حديثي ؟ وأنا، كنت أسمع ما يقول ؟ كلانا كان يبحث في الآخر عن شيءٍ، يتكلم بلسانه، وبقلبه يفكر . يتكلم من قلبه، وفي قلبه يفكر .

هو عاد إلى الماضي، الذكريات صدى السنين، وأنا عدت إلى الماضي، لا ذكريات، ولكن عن صاحبها أُنقِّب ، أستكشف، أقارن... لم أسأله : ما إحساسك الآن ، وقرناً ، أو يكاد ،على منكبيك تحمل؟ لا تسألوا الشيوخ عن أيام الصّبا ، لا تستثيروا حنينهم وحرقتهم ... دعوهم في هدوئهم ..

وهو، برغم هدوئه ما كان هادئاً . في أعماقه تيار ، ليس هادراً ولكنه يجري ، يسيل شوقاً معذباً وحنيناً أشدّ عذاباً...

وخُيّل إليَّ ، وأنا أبادله حديثاً ،وأبادل نفسي حديثاً آخر، أنه استحال إلى تلك الجمرة الوانية المغمورة ، برمادٍ دافئ ، ولكنه منطفئ.

ولقد تشعُّ الجمرة الوانية ،أو تكشف عنها الرماد المتراكم ،غير أنها عندئذ تجسد مأساة النار التي كانت ،لا النار الكائنة ، الخابية حتى لا سبيل إلى توهجها ، تمثل الذبول والانشطار والخيبة ، ومأساة الزمن ومأساة الجسد ، والحنين المودّع ، والوحدة التي كانت وصفاً فصارت حقيقة ، كما الشيخوخة ، في الشباب تكون تصوراً ، وفي إبانها تصبح واقعاً مراً ونأياً نائياً :

ناء عن الأصفياء

عذابه في اغترابه

أوطانه في شقاء

مصابها من مصابه

ويح الخطوب

سألني كيف تذكرتني ولمَ تذكرتني ؟ تهيأ لي أن أحداً لم يعد يعنيه أمري ، فقد مات من أعرف وانقطع ما بيني وبين الأحبة، كل شيء غدا ذكرى..

ماذا أقول ؟ أنا التي نفضت عن دفاتره العتيقة غبار الزمن . أنا المسؤولة لأنني، في الزمن، أعدته إلى أويقات الصبا ، وخفقات كن فيه، وأحبة سبقوا، لم يبقوا ، ماتوا ، تبدلوا وتبدل وجه الحياة معهم ، ودال إذ دالوا.

ووجدتني ، في عدوى الأسى ، أسوانة ، ونفح الأمنية الكسيرة سؤال في الذات يُصاغ : لماذا الأحبة يموتون ووجه الحياة يتبدل ؟

وألاّ يموتوا ولا يتبدل ؟ .. لا ، أيتها الحياة سيري وتبدّلي ، ثم سيري وتبدّلي ، فالنقلة إضافة ، والكلمة ، في البقاء، عزاء ، وعزاء أكبر تكون إذ هي شعر رائد ، يقرع أبواب المستقبل ، ويحمل عبء النضال في أيام المحنة....

إنه يذكرها ، تلك الأيام ، ونحن بها نذكره ، لأنها قطعة منه .

وحين نستعيد العشرينات من تاريخنا ، ميسلون والثورة والخراط وهنانو والعلي ، سنذكر دائماً الزركلي ، أحد أبطال المرحلة ، سنستعيد شعره المتقدم ، مثالاً لحركة الحياة في التاريخ ، ولما تصنعه روح النضال في شعر النضال ، حين يكون للوطن كلّ شيء .. الحب ، وخفق القلب وعذبُ الأماني ..

لقد تحدّى الشاعر مصيره ..

سمح للنار التي في المحبس أن تنطلق ، لأنه ما كان يستطيع أن يُبقيها حبيسة ، ولأن الشعر منها يقبس .

إنَّ الهلاك الذي نتقبله ضرورة ، في عملية الموت لأجل الولادة،

هو نفسه هلاك في النار التي يشعلها الفنان ، وبها يحترق .

الوقوف ضدّ الخوف، ضدّ الراحة ، ضدّ النفس ، هو الطريق لبعثها عبر فنائها ، فالعطاء ربيع لا يتم إلاّ بأخذٍ هو الشتاء ، وتفتح الأوراق لا يكون بغير ذبولها ، بهما معاً تكتمل الدورة .

سوسنة تفتّحت ، والأنداء تجمعت في المركز قطرة ، همها أن تبتعث الحياة ، وأن تجري النسغ حاراً في العروق ، كذلك كان الزركلي في العشرينات ... كان ربيعاً همه أن يبعث الربيع في الغصون الجرد،

وكان نبعاً يندفع في مسيل واحد، وراء غاية واحدة: نشر الوعي الذي هو عنده دعوة إلى تطوير الحياة في صميمها، وإحداث تغيير في الأوضاع الاجتماعية القائمة .

وسيُدهش المتتبّع لشعره دهشةً غير قليلة، لهذه الطليعية في مفاهيمه، بالنسبة لمرحلتها ، وفيما يتصل بقضايا أساسية، كان الحديث عنها يعرض المتحدث لألوانٍ من الضغط والمصادرة ويحتاج من أجل الخوض فيها إلى كثير من شجاعة الشباب ، وهم أصحاب الرسالات.

من ذلك مثلاً قضية المرأة: ماذا تعني ومن تكون ؟

إنَّ المرأة عنده آية الماضي ومحجته على الآتي ... أنشودة السحر وأغنية الزمن المرجع لحنها ،«ولنأخذ في حديث الغد ، فالزمان تجدد ، وتجدده من تجدده»، أما الرجال فبِهم يهتف: الجسم الذي تحرر من إسار قيوده، جدير بأن يتحرر معه العقل المستبعد أيضاً . وآنذاك يفهم هذا العقل دور المرأة ويتعامل معها مخلوقاً مساوياً له كيانه ومطامحه، وعواطفه واهتماماته .

الزركلي هنا ، بمنطق الحياة يخاطب أبناء الحياة ، يفتح عيونهم على واقع أسود يخالف الفطرة .. كيف يرضون بالجمود ؟ كيف لا يفهمون أنه :

ما كان من سنن الطبيعة أن ترى

خطرَ الجمود على القديم وتجمدا

بناء دعائم الحياة هو رسالة الإنسان المتحضر، وأول ما يُبنى أو يجب أن يبنى، هو المدرسة للمرأة. وفي كلية البنات في مصر يعلن

شعراً أن العِلم ، وكانت تلك المشكلة ، هو العاصم وهو الضمان الحقيقي ، لا الأشياء الأخرى ، ولا حراسة الرقباء ، وأنَّ المرأة المتعلمة سلاحها في ذاتها ، لا في الأقارب من حولها ... بديهيات ما يقول ؟ هي كذلك الآن أما آنذاك ، فكانت أمورا دونها كلّ قيم المجتمع المتخلف، تحاصرها، وتمارس ألواناً من الضغط في سبيل إيقاف مدها.

أمران أثارهما بجدية واهتمام ، واستعان عليهما بالأقصوصة والأسطورة ، ليُدين من خلالهما الرجل ومجتمعه ، ويحاول أن يفرض فكرة أعمق ، تستند إلى احترام عميق للمرأة للمخلوق الذي كان يُحمل على الأكتاف ، وتشد في الوقت ذاته ، الأنشوطة حول عنقه ... إنهم يريدون للمرأة أن تستمتع وتُمتع ... وأن تُحاط بالمال والترف ، وتُحجب عن كلّ وجوه الحياة بعد ذلك ، إلاّ ما انطوت عليه الأبواب المقفلة ...

وفي احترام عميق وغير مصطنع ، في قصيدته« هدية الشمس» التي يقصّ علينا فيها مأساة فتاة صغيرة ، يُزوجها أهلها مرغمة من شيخ ثري ، ثم تنهي هي متاعبها بالانتحار ، يتجه بالخطاب للمرأة ، يود أن يستثيرها ويحرك فيها رواسب إحساسها بذاتها ، ويُفهمها أنها هي الوجود ، ولكن لو درت من هي .

لو درى قلبك يا بنتَ الضحى أخت الشفق في الفضاء
لو درى من أنت ...

هدية الشمس لأبناء الشمس هي .. «سيدة العالم من ماضٍ وتالٍ» ..

لو وعت دورها ، وأدركت أن تحررها مرتبط بها ، وأنها تنعتق من الداخل أولاً ، وتفرض بسبب من ذلك انعتاقها من الخارج ، وتذيب قيودها

ولنقرأ في قصيدة «البائسة» وهي محاولة لتصوير إحدى فجائع الحرب العظمى ، عن مأساة التي تبيع نفسها لتطعم ولديها ، وفي الصباح يسرق الشاري منها ما أعطاها، ويطلقها في الحياة لتكون هي الخاطئة ، وليكون هو السيد ،وربما المبشر والزعيم ، والمصلح والمحسن ...

فإذا مضينا مع الشاعر إلى مدىً أبعد ، وجدناه في قصيدته «الفداء»، يصفع مجتمعاً لم يتعلم بعد كيف يحترم المرأة ، وكيف يقدِّر حقيقتها ، وصفاءها ، وكبير قدرتها على التضحية ....

الرجال يخضعون للغاشم الذي يسوقهم سوق النعاج.. والغاشم يبيت العدوان على فتاة في الحيّ. لكنها تدبر أمرها بحيث تموت في سريرها، قبل أن ينالها بسوء. لقد رضيت أن تكون الضحية، وتقدست بذلك، بينما أرادوا هم الحياة فاشتروها بالذل.

تعمد الشاعر أن يجعل من الحكايات و الأساطير ثقلاً في الكفة الأخرى، من حياة المجتمع، يفتح به العيون على أصالة الدور الذي يمكن أن تلعبه المرأة في التاريخ، بحيث تكون فعلاً صانعة تاريخ، إذا ما أتيح لها أن تفعل ذلك، كما أراد أن يضع المجتمع أمام مسؤولياته، في تحديد علاقة المرأة به، والمرأة بالرجل، متجاوزاً كلَّ ما يمكن أن يتعرض له آنذاك من نقمة الرأي العام، وتشهير المشهرين .

لذلك لم تبرز المرأة في شعر الزركلي غزلاً أو شفقاً أو ربيعاً، ولكنها تجسدت إنسانةً في معركة، محرابها هو الأقدس، وصعودها هو التصعيد لواقع أمتها، وتحررها هدف أسمى في معركة التحرر الأكبر ..

كذلك كان موقفه في قضايا كثيرة، ومن مفاهيم متخلفة، تشيع وباءً بين الناس، وتفرض وجودها على حساب تطوّر العقل البنّاء، والفكر السليم ..

ولعلّ حربه للخرافة وشيوعها، واستغلالها لإطفاء القبس المتوهج في النفوس المتطلعة، مثَلٌ جديٌّ على محاولاته تغيير المفاهيم، في«بلاد القضاء والقدر» البلاد التي تكثر فيها الأضرحة و النذور والأدعية، ومعها، أو بسببها، التقاعس والقعود، الاكتفاء بما تمطر السماء، سماء الأولياء أو سماء السحرة، ثم دموع الضراعة التي تسيل مدرارة، والطمأنينة الخادعة تنسرب في النفس ليحدث الاسترخاء الواثق..

إن الأفكار المنحرفة و المريضة، هي أيضاً جديرة بأن تحارب، وقصيدته«الحبشان» على ما فيها من سذاجة في المحاجة، طريقة تستحق الاهتمام، فقد تشفُّ عن عقليته المتطورة آنذاك، حتى بالقياس إلى بعض المفاهيم المعاصرة، في بلدان متقدمة من العالم الذي يسمي نفسه«حراً» أو «ديمقراطياً» .

رأى جنازة أمامها خلق كثير، وليس وراءها أحد، سأل فقيل له إن الميت عبد صالح، وأهل للتشييع، ولكن«العبيد لها الظهور» ومن أجل ذلك فلا سبيل لأن يسير الناس وراءها !!..

ضحك منهم وحزن من أجلهم ..اللون لا يعني شيئاً، نمير الماء واحد، وإن وضع في كوبين يختلف لوناهما، وكذلك جوهر الإنسان .

المسألة كما طرحها الواقع في الجنازة، تبدو مهزلة مضحكة، والحجج التي ساقها الشاعر، أو طريقته في الدفاع عنها، بدائيّة، لكنها

مع ذلك كبيرة الدلالة على وضعه الفكري والنفسي الخاص، في الصميم من مجتمعه، وخارج أطره التقليدية المتعسفة في آن .

كان فكره يتوهّج أحياناً باستبصارات ثاقبة، تشعُّ منها نظرات متقدمة جداً، وذات أبعاد، كما أنها تطرح مشكلات حيوية، في البيئة التي إليها ينتمي..

السلم أو الحرب ؟ سؤال يجيب عليه في قصيدتين«العالم الجديد» و«السلم».

نظم إحداهما في فترة الحرب العالمية الأولى، وحين كان الناس في بلادنا يتقبلون أكثر مما يناقشون، وكان هو مع السلم وبحدة وإلحاح.

رأيه أن الحرب يصنعها الحكام لا الشعوب، تستسلم الرعية فيستبد الحاكم، ويقودها هو بالتالي إلى الحرب . ولم تكن دعوته إلى السلم تمثل جانب السلب، فقد كان يرى أن السلم لا يكون مع العدوان، فالظلم يجب أن ينقلب على الظالمين، ولابد من حربهم، وتلك وحدها ضمانة السلم العادل ..

والفقر والفقراء؟ مشكلة أخرى من مشكلات الحياة، تتخذ عنده معنى وعظيّاً، ولكنه يلمح إلى اللا مساواة والغبن النازل بالفقراء، بشكل ينسجم مع منحى الحياة في تلك المرحلة، ويشكّل تمرّداً على الوضع الاجتماعي القائم.

وفي محاولة التحريض على التطور والتغيير، لجأ إلى التاريخ في بعض قصائده، إنه يجد فيه منبع إيمان ثرّ بالشعب وبالمستقبل. لم يستطع أن يتحرر من الإطار الوعظي، فبحث بشكل تقليديّ عن المحرض الكامن في التاريخ، يجد في البطولة عاملاً حاسماً في تحريك الناس..

ولقد عاش الناس التاريخ في بلادنا، أو عاش التاريخ في نفوسهم، حاداً وقوياً، بسبب طبيعة النشأة التي جعلت بعض القضايا التاريخية، تعني، عندهم، أكثر مما تعني القضايا المعاصرة المباشرة. وفي حياتنا نحن حتى الآن، وإلى حد ما، مشابه من ذلك.

صحيح أن الزركلي في قصيدة«صقر قريش» مثلاً، قد ربط الذكرى الشخصية بالذكرى التاريخية، أو ما هو شخصيّ بما هو تاريخيّ، وأضفى على الشعر مسحة حزينة شفافة، فجعل صقر قريش يودِّع دمشق، حين غادرها، بلوعة وداعه هو لها، غير أن القصيدة، مع ذلك، ظلَّت أقرب إلى الرماد البارد منها إلى جمر الواقع المتوقد.

وفي وعي متوتر، سابق لأوانه، متمرد على بيئته، نعى الزركلي على سياسة التضليل إثارتها للنعرات الطائفية، واستغلال هذه النعرات، وإفادتها من عدم إدراك الناس لمعنى المواطنة، يسمو على التعصب الذي يغذيه الجهل المريض، والمصلحة الضيقة، والأنانية المغرضة..

لقد تبنى في العشرينات، بإحساسه السليم ومنطقه المتمرد، معنىً للإنسان ضمن الدولة، ما نزال نحن، حتى الآن، في حياتنا التي نعتبرها أكثر تقدماً، بحاجة إلى أن نستشعره على وجه أكثر استقامة وسلامة، وشتّان بين أن ندرك معنىً، وبين أن نعيشه واقعاً أكثر تسامحاً ونضجاً.

* * *

وإن الكلام على الزركلي الشاعر، يرتكز، أساساً، على القضية الرئيسة التي كانت لشعره، والتي صارت في المعاناة الحقيقية، الأزمة والمادة والمحور الذي استقطب الاهتمام كلّه، و الصياغة الفنية كلها لهذا

الاهتمام، أعني قضية الحرية و التحرر، لوطن وهبه يومه وغده، ثم شهد مصرع الآمال فيه، على أيدي رجال كان ينتظر منهم أن يكونوا العزاء له.

إن قصته الحقيقية كانت قصة التربة المفجوعة، والأمة التي لم تتعلَّم كيف تغضب، والتي لا يعرف كيف يستصرخها، أو كيف يثور بها.

وشعره في هذه المرحلة تأريخ للحياة في سورية، منذ المراحل الأخيرة للعثمانيين، حيث كانت الجثث في قصيدته«العرب والترك»، «آمال وآلام»،«تورّد اليم»، والعام يأتي بالدم لا بالمطر، والرعب في كل مكان.. إلى أن كانت الفاجعة الرهيبة التي تُعبر عنها قصيدة«فيم الونى؟» ديار العرب تقتسم.. وهو يستصرخ مصر وبيروت ودمشق وفلسطين.. يستصرخ بعفوية وصدق وإيمان، العرب في كل مكان، كي يشحذوا النصَال، ويستعدوا للمعركة، ما دامت الوعود كاذبة، وفجيعة ميسلون على الدرب، ضمن ما يراه الرائي في المستقبل القريب..

في«الفاجعة» التي نظمها بعد معركة ميسلون، يُنصف النضال، ويأسى لوضع بلده البائس الضعيف المستذل، ويدرك خطوط الصورة: الزعماء متنافرون، والأهل مختلفون، والعدوّ يتوعَّد..

وفي دهشته الأولى أمام الأحداث، لا ينسى أن يمجد الأحرار، ويبكيهم في لحظة تجمع فيها الزمن أسى وخلوداً، هزيمةً ومجداً، غلت المراجل فاستشاطت الأمة:

زحفَت تذود عن الديار وما لها ... من قوة، فعجبتُ كيف تذودُ

الطـائرات محوّمـاتٌ حولهـا　　　والزاحفـات صراعهـنَّ شـديدُ

ولقـد شـهدتُ جموعهـا وثّابـة　　　لو كان يدفعُ بالصدور حديدُ!

لو كان يدفع بالصدور حديد، ولم لا؟ قد لا يكون هـذا ممكنـاً في تلك الظروف المبكرة للنضال الوطني، غير أن دفع الحديد بالصدور، أو ما يسمى بقوة الإنسان تجاه الآلة، ليس استحالة أو تمنياً، و لا يشي بالنفي أو العجز، و قد كان، وظلَّ، مورقاً موقف الذين يقاومون بالصدور الحديد والنار، في كلِّ مكان على هذه الأرض، وفي كلِّ زمان، وهو الزركلي، حتى في نفيه مثل هذا الدفع، لا يستبعد إمكان حدوثه، لأنه نفي بصيغة إثبات وتمن، شرطه أن تتحقق الرغبة المضمرة في قوله:

لو كان يدفع..

أمّا الدمع المتحدر الذي صوَّره بقوله:

تسقى بـه في الغـوطتين مباسـمٌ　　　ذهـب النـواحُ بمائهـا وخـدودُ

فلـم ينـسه أن يكفـر كـسياسيّ مـن ذلـك الزمـان، حماسـته شـحنة عاطفيـة، بريئـة وسـاذجة، وأن يلعـن العهـود و المواثيـق التـي صـدقها الناس، وكذبها واقع الحلفاء.. لقد جهروا بتحرير الشعوب ووعدوا، وخـدعوا.. ثـم أثقلـوا هـذه الـشعوب بالـسلاسل و القيـود، بـدلاً مـن تحريرها أو مساعدتها على التحرر.

ومـع ذلـك ظـلَّ الـزركلي يأمـل، ويتطلـع، وإن رزح أحيانـاً تحـت عبء اليأس. سنوات ثلاث انصرمت بعد ميسلون، فماذا جدَّ في حياة العرب خلالها؟ الجواب كما تحمله قصيدة«هنا وهناك» قاسٍ ومؤلم، فالبلاد مقسمة بين منتدبٍ وحام.. فلبي وغورو وصمويل يقودون

البلاد، وكذلك برسي كوكس في العراق، والتشتيت والنفي و التعذيب قدر الأحرار، وشكوى الشاعر، شكوى العرب، هي هي ما تزال، الخلاف في الرأي، وفرقة الأحزاب، وتنافر القلوب.. العزيمة فاترة، والناس أيقاظ كالنيام، أقوياء منفردين، ضعفاء مجتمعين، مع أنهم يعرفون أن نصرهم رهن باجتماعهم...ماذا يصنع هو بعد ذلك؟ يؤثر الصمت؟ يودع بيانه؟..

خابت أمانيه في الرجال،«لعصفورة النيربين» يقول ذلك، وإن ظل على حبه لأولئك الرجال، الذين يئس منهم.

وفي«نفثة مصدور» يعلن أن الأمة عصية على الإصلاح.. العدو محدق بها، وهي مريضة باللامبالاة، يتحكَّم فيها الجهل والغرور وغوغائية مفرطة. لم يكن يتصور أن تكون الردود، مع الزمن، بائسة بهذا الشكل، وأن يصل العرب إلى حدٍّ من التبلد يتساوى لديهم معه الربح والخسران.. وينسون أنهم ما يزالون في معركة .

أمَّا التسويات التي قبلوا بها فيا بؤسها! أن يذهب فيصل إلى العراق، وسورية تعاني ما تعاني، فذلك مرفوض في منطق كل سياسي مخلص..

وتزداد الأمور بالنسبة إليه تعقيداً، حين يحدث الصدام في الجزيرة عام ١٩٢٤ ،فيندب بلوعة وحرقة، ضياع معنى الثأر الحقيقي الذي يجب أن يملأ نفوسهم، لينشغلوا عنه بمعارك بدوية، تنشب بين النجديين و الحجازيين و اليمانيين.. يتلفت حوله يسائل، في الشام ثأر وفي العراق ثأر، ولكن أين من يطلبه؟ أين الثائرون الغضاب؟ لقد تفرقوا شيعاً، وأحزاباً على أحزاب...

الشعوب كلُّها اتحدت إلاّ جزيرة العرب! والإنكليز والفرنج يلعبون دوراً في إضرام النار.. كيف نفهم أن يتقاتلوا على مذهب، وحولهم الأعداء يستلبونهم؟ ولم تتصارع المذاهب، والدين من ذلك براء؟.. زحفت الجموع «ليثأر صاحب من صاحب».. مرض العرب القديم، والقصة تستأنف باستمرار، صراع الألقاب و الشكليات، في عالم منهزم لم يبقَ له من حقائق الحياة إلاّ هذه الشكليات!! ولم يبقَ للزركلي إلاّ أن يهتف من أعماق الظلمة:

ضاعت بلادي، يا زمان الصغار والاندثار

الناس يبنون وما في الديار

غير الدمار

وأمتي هاوية في انحدار

بئس القرار...

وأن يبكي:

أبكي دياراً خلقت للجمال

أبهى مثال

أبكي تراث العز والعز غال

صعب المنال

أبكي نفوساً قعدت بالرجال

عن النضال

وأن يتململ في يأسه:

يا زمن الشؤم سقيت الشآم

كأس حِمام

إلى متى نبقى أسارى انقسام

ونستضام

وأن يصرخ:

متى ترى تبسم لي يا زمان

ألا حنان

* * *

نستعيد من خلال شعر الزركلي، صفحات مطوية أو تكاد، من حياتنا القريبة، يعفُّ عنها التاريخ، مساءلةً أو خوفاً أو طمعاً، ويتناولها الشعر بكثيرٍ من الجرأة والصراحة.. إنه يسائل عن الملكية والملوك، عن الهاشميين، أرباب العرب، منذ متى وإلى متى؟

وقصة الزركلي معهم طويلة، بدأت منذ أن حُكم الشاعر بالإعدام، وغادر سورية. وحين التحق بالحسين قائد الثورة، طلب إليه أن يردف الأمير عبد الله في الأردن وأن يكون عوناً له على تدبير الأمور..

يبدو أن الشاعر أخذ الأمر بشيء من الجديَّة في بدايته، وحاول أن يكون الثوريَّ والناصح و المحرض، ثم أخذ يكتشف أن الأمور تجري على غير ما يجب، وأن صورته عن الواقع هي غير الواقع ..

في البداية، كان يعلِّق آمالاً كبيرة، كما يبدو، على الملك حسين، تشهد على ذلك قصيدته«من يجيب ؟» التي يستصرخ فيها الحسين كي

يرد على نداء الشام، والشام آنذاك نداء إباء ... تمنى الشاعر للشام أن تثور، وللموت أن يغدو طريقاً للحياة، وللحسين أن يُقيم في الشام سوقاً للطعان ! وظلّ استصراخه صرخة في وادٍ، وكأنما الناس جميعاً قد أصبحوا، على حدِّ تعبيره، صُمّاً لا يسمعون ولا يعون ....

وحين سافر إلى عمان مع الأمير عبد الله، كان يحسب أنه سيؤدي دوراً حقيقياً في سياسة الحكم، ودعم الأحرار، وتبديل صورة التاريخ...

ثمَّ بدأت الخيبات تتتالى إلى أن غدا وجوده في عمَّان شاقاً، يكاد لا يُحتمل ...الأحداث من حوله وهو مغلول اليدين، عاجز عن القيام بأيِّ عملٍ تنفيذيٍّ أو تخطيطيّ . وبعد عامين، ينظم قصيدة عنوانها «عامان» تكاد تذكِّر ببعض شعر المتنبي في هذا المجال ... يعلن أنه سَئِم المقام في موطن ذل الأعز به، وغدا حَمْلُ القيود أيسر من الإقامة فيه . بقية من أمل تمسك الناس المجتمعين أن يتفرقوا، وإلا فالمعركة تغدو أشد سوءاً .

وبعد سنة من هذه القصيدة، والشاعر يتنقل من إربد إلى عمان إلى السلط، حائراً قلقاً، يصرخ هاجياً :

ما كان إلاَّ عبدَ طاغوته   من حسبوه يعبد الله

ذات يوم سار العرب جميعاً، وراء الحسين وأبنائه، وآمنوا به وبهم، ثم إذا بالواقع يتكشف عن غير الظن، ويرفع الأقنعة البيضاء التي تقنَّع بها المختارون، ليبرز وجههم الحقيقيّ ....وينفي الأمير عبد الله في الأردن«جماعة من أحرار العرب السوريين إلى معان»، ويبرق

إليه أبوه الحسين كي يرسلهم إليه في مكة، على ظهر باخرة .«أفلاذ سورية» ينفون منها، أو يهجرونها، كي يناضلوا دون حق العرب، فيُضطهدون من قِبل العرب ..... المأساة لها إذن أكثر من وجه، وجهٌ انكليزيّ ووجهٌ عربي .... ويا قلب اخفق أسى فقد«أوجعك الحديث معادا» وعمان الموئل :

لاذت بعبد الله فانقادت وما حسبتهُ لاذَ بغيرها فانقادا

حمل الصفاد لها وقال تحرّري لو رام تحريراً رمى الأصفاد

والأمور تتلازم بمنطق سببيّ، فالذي يكبِّل الناس بالقيود لا يطلب إليهم من بعد أن يكونوا دعائم التحرير ... ذلك محال ... والرؤوس المحنية صعب عليها أن ترتفع، واليد المكبَّلة تظل تتحسَّس القيد والاستقلال لا يأتي من لندن .... أما الأحرار الذين سيقوا إلى مَعان ومنها إلى مكة .... فقد نذروا حياتهم للعمل العام، وللنضال من أجل التحرير، ولم يعد يهمهم أين نزلوا أو أين ينزلون ... ولا الوعد أو الوعيد يثنيانهم عن متابعة الطريق، أو التخلي عن الريادة .

بمرارة يتحدث، فالتجربة ما تزال غضة ومفاجئة، والأحزان، منذ حين، تتولد على أرضنا، من الأحزان، يد العرب تمتد إلى صدر العربي، ويد من؟ يد الذين أسبغ عليهم التاريخ في حياتنا شيئاً من قداسة، وكانوا أملاً وتطلعاً ورمزاً لانتصار العروبة، أوائل الثورة ... وتنفخ الرياح رمال الهزيمة، في معارك الجزيرة، بين العرب أنفسهم، ويستولي النجديون على مكة، ويخرج منها الحسين، وتأتي قصيدة الزركلي«جبار زمزم والحطيم» وثيقة تاريخية، غريبة من نوعها، تشفُّ

عـن أشـياء كنـا نعتقـد أن العـرب فوجئـوا بهـا في الأربعينيـات، وأن خطوطها لم تكن بادية للعيان وقد نُظِمت عـام ١٩٢٤ . التهمـة الكبـيرة الموجهة للحسين هي أنه كـان عالماً بـأمر العـدوِّ، ومـع ذلـك فقـد طـال انقياده له :

طــال انقيــادك للخـــصوم وأنـــت أدرى بالخـــصوم
الإنكليــــز ومــــا أراك بـــأمرهم غـــير العلـــيم

والتهمـة الثانيـة لا تقـل في أسـاها عـن الأولى ...أقبيـة التعـذيب تنبعث حيَّةً في قصره، والسراديب الرطبة تغـدو سـجن الأحـرار الـذين شاؤوا لأمتهم ألاّ تظلَّ في الظلام :

ريــع الكـــرام بقـــصرك العـــالي فــذُق روع الكــريم
اســـمع أنـــين «القبـــو» ويح «القبـو» مـن حنـق كظـيم
أعـــددت للأحـــرار فيـــه عقـــاب منـــتقم ظلـــوم
أكلـــت حيـــاة القبـــو مـــن أرواحهـــم ومـــن الجـــسوم

وصاحب القصر ما يزال يتحدث عن الخلافة، وفي تحجّر العقليـة يحجر الزمن ....

لقد ذهبت الخلافة منـذ أمـد طويـل، قبـل عهـد العثمانيـين، وهـو يتطلبها لأنه غافل عن مسار الكون، وقاصر عن فهم الجديد في الـدنيا، ووضعه«كزعيم» يبدو غريباً، متناقضاً إذ فاته فيه«سـهر الـزعيم» عـلى مصالح الناس ، ولا يعرف المرء أيتهمه بـالعجز أم بـالتزوير ، وباليقظة أم بالغفلة . وإن كان هذا لا يغيّر شيئاً، من حقيقة أكيدة ، هي أن تخومـه

مستباحة ، ووليده في «الرقيم» (قرية أصحاب الكهف ، ويقال إنهم كانوا بعمان) يعيش في أهل الرقيم ، في حين إنه:

يحبو يهوذا ما حبوتَ … وليس غيرك من ملوم
خسروا رضى موسى الكليم … فنابَ عن موسى الكليم

وتلك ، في الظن وثيقة هامة ، توضح بعض خطوط السياسة التي تلت فيما بعد ، وتُري أن العين البصيرة ، كانت قادرة آنذاك ، أن تستشرف المستقبل ،وترى أننا لا نجني من الشوك العنب ، وأن التحرر لا يأتي من درب العبودية .

يعود للحسين في القصيدة فيذكّره ، عساه يتذكر، أن العرب قومه، وأنه منهم في الصميم ، وأنهم قد حاولوا به العظيم ، وله في معاصريه أمثلة أخرى ذات دلالة ... عبد الكريم الخطابي الذي يحمل الجراح وينادي بالنضال ضد الإسبان ، في حين أنه هو غارق في النعيم ، وهو هو ، بسلوكه هذا ، جرح العرب الدامي ، أما الجزيرة فلها الله ، تتخبط في العماية ، وتتناوشها الأيدي ، ومن يعلم كيف ستحكم؟ .

في مصر نظم الزركلي هذه القصيدة وقد يكون فيها شيء من التجنّي ، ولكن هذا لا يمنع أنها تشفُّ ، إلى ذلك ، عن بعض خطوط الواقع الأليمة ،وتحمل ، تاريخياً على الأقل ، أكثر من دلالة ، ونفهم معها عمق الخيبة التي أحسَّ بها الزركلي ، في شبابه الأول ، منفيَّاً عن سورية محكوماً بالإعدام ، ومناضلاً في الجزيرة والأردن، ثم مبعداً عنهما في القاهرة، يرى خط الانعطاف لولبياً، مخاتلاً، متطاولاً، ويقف مع غيره موقف العجز ، اليد شلاء ، والأحرار للسجون والمنافي، وليس

إلا الشعر سبيلاً للمقاومة وتنبيه الناس، وتفتيح الوعي، وتجاوز الخيبات، وليس لهذا الشعر في الأرض الطيبة إلاّ دور البذور التي تُلقى في تربتها، على أمل أن تتفتح وتنبت، ويكون منها حصاد ذات يوم.

* * *

أمَّا الشام التي ألقى عليها«جمّ الهم نظرته» فإن الأحبة يودعونها ... ومن بعيد، من وراء الحدود، يلامحون الظلال الهاربة، على الأرض التي غدت حطام الحضارات، يختال عليها الغاصبون، فهل تكون الحياة سكراً أكثر مما هي صحو، وظلمة أكثر مما هي نور ؟ ... الزركلي يقول : (سكرت حتى نسيت صحوي)، وظلت نفسي تهفو للنيربين، لعصفورة النيربين تغني وتروي عني حديث الأنين لأنني المعنّى،

«وما المعنّى

غير حنين أذاب منّي

شغاف قلبي»..

هواي هناك، للأرض، للأهل، لبردى والغوطة..

بالشعر يستشف، والحنين مخزونٌ نفسيٌّ كبير، منه وبه تتوهج الشاعرية، وتغدو المعاناة سراً من أسرار الخلق، ويتوزع الشاعر إحساسان في آن ،التوحد والارتباط، الانفصام والانتماء، والحزن الغامر، بعد ذلك، يلف بضبابيته وبروده، حنيناً غدا أنيناً وتوجعاً، وبعداً مأساوياً من أبعاد الوجود، وإشراقاً روحياً يستشرف ثم يرتد إلى الأعماق، في النفس وخارجها، ليكون منطلق عذاب وتوجّد، ارتباطاً بالأرض، بالتربة المفجوعة، بالأمة التي تهوي..

القمر وحده يشهد بؤس الغريب المودّع ، المستسلم لهوى النوى، يحرقه الشوق ، ويملأ الفضاء احتجاجاً ونحيباً ... ناءى الأحبة وظلَّ يذكر ، والنار في أعماقه تلتهب ...

كلُّ الأشياء الصغيرة صار لها معنى وبُعد ، كل الأماكن غدت حبيبة وقريبة ، وبقلب الفنان المتألم ، انبجس المكان مهاداً لذكرياته ، واتخذ في حياته النفسية معنى آخر .. منين والتل والقلمون ، ودمر والصفصاف ، والربوة والسفح ، والليالي بوادي جلق ، والقلب لاهف ، والحرمان كبير ، ولهيب الشوق من يطفئه؟ من يحمل رسالته إلى كلِّ بقعة من بقاع الوطن ، وكل ذرة من ذرات ترابه ؟...

الشاعر، ناي الصحراء، يرجع النغم للوطن الذي لا يعشق سواه، للديار التي يبكيها«ربوعاً لا تطيق الهوان»، وهي«رهن امتهان» جميلة خلقت وبهية ... وهو على العهد يحمل عبء الهوى ، فهل لحمامة الوادي أن تكون الرسول والمبلغ ؟

أنا في هواك كما يشاء هواك لي — كلف بحبِّك يا دمشق ودود

* * *

هلاّ تلوتَ على معالم جلّقٍ — مني التحية والمزار بعيدُ
لم أسلُها وحبستُ عنها عَبرتي — إني على حرق الأنين جليدُ

النفي عابر ، ولكن الحنين ديمومة ، وبه ربط الآني والخالد في علاقة جعلت من الفسحة بينه وبين دمشق ، قبساً شعرياً يستضيء به المنفيون والمعذبون دائماً .. وفي نوع من القلق والخوف يقول لدمشق ، محتجّاً ومعتذراً ومعاتباً:

أقصيتُ عنك ولو ملكتُ أعنتي لم تنسبط بيني وبينك بِيدُ
أترينها الأيام تجمع بيننا وترين عهد صفائها سيعود
أمسي وأصبح كالمدلّه حائراً يعتادني التأريق والتسهيد

وبعد عامين من الغربة المفروضة وعذاب النفس ، والليالي الباردة الطويلة ، وألوان من المخاوف ، يقول لدمشقه العزيزة أنه «لولا الحنين» لما بكى الليالي التي كانت بها تجود ، ولولا الحنين لما بكى الأحبة الذين كانت تضم وتجمع ، ولولا الحنين لجفت مقلتاه من الدمع ، ولولا الحنين ما بكى بجلق« قمراً يغيب وألف شمس تطلع» ... مخاوفه كبيرة عليها ومن أجلها ، ترى ماذا يصنع بها العداة ؟.... لقد سئم الإقامة بعيداً فمن يبلغ ديار الصبابة ، وهي« أحبّ ما يحب» حاجته إلى العودة .... إلى عبير التربة ومواطن الشوق ؟!

ولم يكن أمراً غريباً أن تحتفظ قصيدته« نجوى» بموضع خاص لها في كل منزل ، وأن تغدو غناء المغتربين ، ينشدونها ويبكون:

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريانةٌ بالدمع أقلقها ألا تحسَّ كرىً ولا وسنا
ليت الذين أحبهم علموا وهم هنالك ما لقيتُ هنا
ما كنتُ أحسبني مفارقهم حتى تفارق روحيَ البدنا

في كتابها عن الشاعر« ايميه سيزير» تقول الكاتبة ليليان كستلوت:

«عندما يكون الشاعر يائساً حيال الأفق المسدود، كجزيرته في البحر، كشعبه في استسلامه، لابدَّ له أن يهرب لينجو من الاختناق. ولا يبقى لديه إذ ذاك، من مَخرج سوى إمكانيتين: الرجوع من خلال الزمن، والارتواء من المنابع القديمة، أو أن يضع، للمستقبل، مشروع عالم من ابتكاره مُطهّر ومُحرّر وأخويّ».

شعر خير الدين الزركلي يظهر أنه اختار المسلك الثاني، وهو الحلم بعالم متحرر، والمجاهدة لجعل الحلم واقعاً، أو على الأقل، توظيف طاقته الشعرية لإحداث تغيير، في خريطة العالم العربي السياسية، من شأنه أن يجعل هذا الحلم في التحرر الوطنيّ، بداية طريق إليه.

وسيدخل في وهم الشاعر أن جهده يذهب هباءاً، لأنه لا يبلغ الأثر الآني الذي يريده، وهذا ما يعذبه ويقنطه، ولكننا نحن الذين ندرس شعر الزركلي، بعد نصف قرن، نكتشف أن ذلك الجهد لم يضع، لأن كرة التقدم تنمو، كما قال بارسادانوف، وهي تنمو دون أن نحس، نحن الذين ندفعها، إنها تنمو، في اللحظة التي ندفعها فيها، ولكننا ندرك ذلك حين ننظر إليها من مستشرف السنين.

ولقد دفع شعرنا الوطني، في النصف الأول من هذا القرن، كرة التحرر التي كانت من نارٍ لا من ثلج، وأنماها، ومدَّها بالوقد حتى أنارت الدرب إلى الاستقلال، ولكن هذا الشعر كان سياسياً في معظمه، وكان شعر الزركلي سياسياً كلّه تقريبا، ومن هنا صعوبة الصياغة الجمالية فيه، وكذلك صعوبة الحكم عليه انطلاقاً من هذه الصياغة.

لا قل، و أنا على ثقة من رأيي، إنَّ الزركلي عرف كيف يمزج بين السياسيّ والجماليّ في صياغته الشعرية، وعرف كيف يطوِّع القصيد

ليستوعب ، بالشعر لا بالنظم ، مضامينه النضالية ، وكيف يتجنب إلى حد ما مزالق التقرير والتسطح والسهولة ،في تناول المادة الفكرية، وتشكيلها فنياً .والسبب في ذلك صدقه أساساً ، ومعاناته ورهافة إحساسه وموهبته ، وكذلك مقدرته ، وهو في قلب المحنة ، أن يكون أكبر منها ، وأن يزحزها ويخرج من تحتها ، لينظر إليها من مسافة أبعد منها، تلك المسافة التي هي وحدها، في النظر إلى الشيء ، تسمح بأن نراه في كلّيته وحقيقته . يضاف إلى هذا أن الزركلي عرف كيف يجد في الشعر،شيئاً يسمو على الشعر وكيف يخلِّد اللحظات الآنية العابرة ، ويجاوز الخيبات الكبيرة بتطلعات كبيرة...

حسُّه الحياتيّ ربطه بالنور ، بالشمس ، بالصباح، بالربيع ... وكانت آفاقه أحلاما تتسع فتشف ، وتغدو إشراقات تستوعب وتتسامى ، وتسعف في مزج عواطفه برسالته ، أو تخلع هذه العواطف على الرسالة ، فتكسبها حرارة وألقاً . إن قصيدته«يا شمس» لا تخلو من تكلُّف وتعنُّت ، ولكنها بشكل عام ، توضح خطّ تفكيره ، واتجاه أحاسيسه الممزوجة بهذا التفكير.

الشمس في هذه القصيدة رمز بديل ، استخدمه الشاعر دون أن يتقصده، تياراً في التعبير الفني . وهذا الرمز صياغة لإحساسٍ مبهم ، يومئ إلى ظمأ للنور في مواجهة الظلمة السائدة ، إن الشمس ليست كوكباً محجوباً في الجزيرة العربية ، تشتهى لذاتها كما هي الحال في أوروبا. إنها هنا، كما كانت عند ناظم حكمت ،«كوكب ملتهب ، يشربه الماضون إلى غاياتهم ، في أقداح من فخار». وقد كان الزركلي أولى بحب القمر ، في أجواء الصحراء المحرقة ، لو أنه قصده كوكباً جميلاً لذاته.

يُفهم من كلامي هذا أن الزركلي كان من الرمزيين ؟ أو أنه استخدم الرمز عن قصد ؟ أنا لا أذهب إلى هذا الحد ، لأن ما أريده هو التدليل على فنية الشعر ، في التعبير غير المباشر عنده كما في قصائد أخرى.

إنَّ إيمانه اللاهب باليقظة والفجر ، وتحسسه للحياة ، جعله يكسر ما هو تقليديٌّ أحيانا ، بأسلوب تتجلى فيه قدرة تشكيلية واضحة ، يطرح الطبيعة استشفافاً جمالياً، كما في«نشيد الصباح»، ويقظة موحية وذات رفيف...

ابتسم الفجر فقل للنائم : حسبك نوم

و«العمر يوم» يختزل الزمان امتلاء ، والحياة عراك وحركة ، وعزم وتوفز، والعيش ليس:

« أن تنعم في ظل الأراك،

وأن ترى العالم وهو لا يراك...» .

العيش معنى أكبر حين نعرف كيف نكون جديرين به ، في يقظتنا الدائمة، ووعينا المتفجر ، وارتباطنا بالنور ، وتعلقنا بالأمل ، مهما أظلم الليل .

إن الجمالية الفنية ، على وفرة تعريفاتها، تظل حسَّاً جمالياً للتذوق لا للتعريف ، ومن جمالية شعر الزركلي هذا الاحساس المتولد في النفس المتذوقة . فالمعنى فيه يغيم أحياناً ويبقى النغم ، تترجع أصداؤه ، ولا يضيع مع المدى ... ناعماً ومعذباً ينساب ، يحمل نفحات الجو القديم ورومانتيكية العشرينات ، مضافاً إليها غربة عميقة تجسد واقع النفي

والإحساس به ، كما ترسم بلمسات خفيفة ، الماضي ، ساجياً ، بسيطاً ، مترعاً ببراءة المواجهة الأولى.

النغم ينسرب عبر اللفظة، تؤكده اللفظة، شحنتها الموسيقية كامنة في ذاتها، وبما تتواصل به مع غيرها، بل إن التعبير التصويري المموسق قد يفوق ما يؤدي التركيب الكلاميّ من معنى محمول في تضاعيف الدوائر المنداحة مع إيقاع اللحن الداخليّ.

لقد كانت نفسه لاقطاً بالغ الرهافة ، ومفاعلاً نشطاً يكشف ويوري ، ومعبداً يستحيل كل شيء فيه إلى مناجاة حارة ، لا تبتذلها السياسة ولا تذهب بشاعريتها . وإذا كان لم يرضَ بالحواجز العقلية والعاطفية التي فرضتها الحياة في بلاده آنذاك، فقد حاول جاهداً، وفي عدد من قصائده ، أن يجاوز مبكراً كلاسيكية القصيدة ، ويكسر طوق التفاعيل الذي يشلّ ويكبّل ... ولم يعرف السبيل إلى ذلك ، فلجأ حيناً إلى أسلوب الموشحات ، يختار منه ما كان أحلى إيقاعاً ، وأقرب إلى طبيعة المضامين التي يريد أن يطرحها ، كما في قصيدته «نشيدة الصباح» أو «يا زمان» .. كان همّه أن يطلق القافية ، ويوازن البيت ، ويخرج عن حدود الوحدة التقليدية ، انسجاماً مع فيض النفس وألق الإحساس ، وكانت قصيدته «عصفورة النيربين» خير دليل على ذلك...

ولأنه في وقائع السياسة وجد مادة أفكاره ، ومن بابها دخل عالم الشعر ، فإن تجربته السياسية أعطت لتلك المادة الخام مطاوعة أشد بين يديه ،باعتبارها حياة خاصة له ، وحياة عامة لوطنه، وهكذا راح يمتح الواقع منها ، ومما هو خارجها ، في ذلك الانعكاس الخلاق الذي للمعاناة ، في الذات الموهوبة ، لقد صار الفن عنده حياة طابعها

رومانتيكي ، نظرةً وتمرداً ، ومن الاحتكاك بين تناقضاتها كانت تتولد الشرارة وينبثق الشعر ، وبه يغدو العادي غير عاديّ، والواقع فوق ما هو ، رفضاً وتناولاً ، تفتيتاً وتشكيلاً.

يذكرنا، مع هذا ، بحافظ وشوقي ،؟ ذلك معقول . فالمدرسة القاهرية الكبيرة كانت تبسط أجنحتها ، على شوارد الشعر ، في العالم العربيّ ، وتشدها إلى القديم..

غير أن الزركلي استطاع ،إلى ذلك أن يكون طليعياً في أفكاره ، وأن يخلعها على الشعر ، رغم سذاجتها أحياناً ، وأن يطرحها شعراً أيضاً ، بحيث تحمل كلَّ ظلالها وطاقاتها ، وتغدو ومضات فهم عميق ، وتحديات عنيفة ، وإشراقات ...

أمَّا ميدانه الأساسيُّ الذي أرسى فيه قواعده ، وكان من أفضل رواده فهو شعر الحنين ، يغدو مدى وانخطافاً وتوجداً ... فيضاً من الشعور يعدي ويأسر ، أغنية الأغاني لشعب ماتت أكثر أغنياته...

ونتساءل : ظلّ تقليدياً مع ذلك ؟

لا أحد ينكر ، ولكنه كان في العشرينات خطوة كبيرة على الدرب السليم ، فكراً وشعوراً ، ونضالاً وشعراً ،حلقة تتمفصل فيها مرحلة هامة ، من تاريخ السياسة والشعر ويجدر بالقراء أن يقفوا عندها وقفة طويلة...

وتراخى الزمن بالبعيد ، وأقام نازحاً في مصر ، وتعاقبت النكبات على الوطن ، حتى كانت أحداث الثورة السورية ، وتجمع الناس في حفل يجمعون التبرعات لسورية المنكوبة، وألقى شوقي قصيدته الشهيرة:

سـلام مـن صـبا بـردى أرقُّ ... ودمـعٌ لا يُكفكـف يـا دمـشقُ

وجاء دور الـزركلي ... كـان الجـرح مـا يـزال طريـاً في نفسه حـين أنشد :

الأهل أهلي والـديار ديـــاري ... وشعار وادي النيربين شعاري
مـا كان من ألـم بجلّـقَ نـازل ... واري الزناد فزَنده بـي واري
إنَّ الــدم المهــراق في جنباتهــا ... لَدمي وإنَّ شـعارها لَشعـاري
دمعـي لمـا منيـت بـه جـار هنـا ... ودمي هناك على ثراهـا جـاري

* * *

يا وامض البرق اطمئنَّ وناجِني ... إن كنـتَ مطَّلعاً عـلى الأسرارِ
مـاذا هنـاك فـإن صـوتاً راعنـي ... والصوت فيه جفوة الإذعـــارِ
النــار محدقــة بجلّــقَ بعــدما ... تركت حماةَ على شفـير هـــارِ
والوابل المدرار من حمم اللظى ... متـواصـل كالوابـلِ المـدرارِ
ويح الحضارة كيف يمتهن اسمَها ... متكالبون على الضعاف ضواري

ولكن ماذا يصنع المحكوم بالإعدام ؟ لا سبيل إلى اقتحام الحـدود ... الذين في الداخل يصطدمون بجـدران الأقبيـة ، والـذين في الخـارج بسلاح الحرس المرابطين !! والشاعر يجد نفسه مضطراً إلى البقاء بعيداً ، عن مسرح المعركة.

ويطول هـذا البعـد ... كـان في البـدء مفروضـاً و ثـم صـار مألوفـاً وتحوَّل إلى عزوف عن القرب ، ورغبة عن العودة في النهاية . لقـد تـرك

العمر بصماته، والظروف الحياتية التالية آثارها ، على الشعور والشعر . تصبح الحرية ، بعد النضال الطويل ، والخيبة المريرة معنى تجريدياً، والحياة

والحياة أكثر إملالاً ... الصوت يغدو أخفت ، والأسى أقل عمقاً، والشعر أضعف رفيفاً ، وشتان بين تصوير العالم من الخارج ، وبين الحياة في قلب العالم ... شمس تطلع ، كما يقول ، وشمس تغيب ، وهو موزع تائه .. ثم مستقر في عمل لا يمت إلى النضال أو إلى الشعر بِصِلة، ثم مستسلم لواقع آخر ، كان فيما مضى يرفضه ، وربما يدينه .. وغير غريب أن يغدو الشعر أقلَ طواعية ، وأن يكون أجمل ما نظم منحصراً في الديوان الذي نُشِر عام ١٩٢٥ ، وأن تأتي وقفاته البعيدة البعيدة ، بعد نحو من ربع قرن من هذا التاريخ أو يزيد، باهتة إلى حدٍّ ما تفتقر إلى عنفوان الحنين الماضي وحرارته.

عام ١٩٥٨ يقول في دمشق:

وقفتُ بها والعين بالدمع ثرة
وناجيتها والقلب بالذكر هائم
طغى زخرف العمران حتى استباحها
فلم يبقَ إلاَّ رسمُها المتقادم
حبيب إلى النفس القديم وإن عفا
تسامره أو تشتكي أو تنادم

وعام ١٩٦٤ يقول فيها:

هـذه جنتـي دمـشق ، وهـذا **برداهـا .. وأيـن لي النيربـان**
أيـن عـصفورة الربيـع تغنـي **ولهـا مـسرح عـلى الأغـصان**
بسطت ظلها القصور وخلـت **لأليف الجنـان ذكـرى الجنـان!**

أضاعته بلاده، وأضاعها هو، خسرته شاعراً ، وخسرها شعراً ، وتخلدت من حياته فترة التطلع والنضال ... كل شيء له ثمن ، وربما كان أثمن ما يجنيه الشاعر ، في انكسار الأنانية ، وعظم التضحية ، أغانيَ تتخلد، وتكون الطموح والزهو والتأبي...

حين زرته في بيروت ، وقد عكف مهيباً على عمله الجليل ، معجمه الذي يريده أن يكون مرجعاً هاماً في حياة الثقافة ، أحسست بحزن رقيق ، كالسحابة الصيفية ، في صباح نفتقد فيه الشروق الذي توقعناه .. تمنيت لو استمر الزركلي في خطه الأول ، شاعراً ومناضلاً ولو استمرَّ في نفسه القلق القديم ، والتوق الحنون إلى الأمداء البعيدة ، حيث الفضاء مكان رحيب لتحليق الطير الذي يطوي جناحيه وهو في قفص .. وكنت على استعداد لأن أقول له ذلك ، ولأن أصارحه بما في الخاطر ... ولكن لماذا ونحن نعمل ما نحبّ ، يكون علينا أن نتركه لنعمل ما يحب الآخرون ؟!

الأعـلام - لخير الدّين الزِّركليّ

د. محمد شـفيق البيطار

- أنا في هواكِ كما يشاءُ هـواكِ   كَلِفٌ بِحُبِّكِ يا (دِمَشْقُ) وَدُودُ

✧ ✧ ✧

- لَـوْ مَثَّلُـوا لي مَـوطِنِي وَثَنًـا   لَهَمَمْـتُ أعبُـدُ ذلِـكَ الوَثَنَـا

أحبَبْتُهُ أوَّلًا شاعِرًا في أَوَّلِ الطَّلَب، إذ كانَ (ديوانُهُ) مِن أوائلِ الدّواوينِ الّتي اقتَنَيْتُها، وأخَذَت بِلُبِّي قَصيدَتُهُ (نَجْوى) الّتي صُدِّرَ بها ديوانُه بِخَطِّ بَدَويّ الدِّيرانيّ أَحَدِ أشهَرِ خطَّاطِي دِمَشْقَ وفَنّانِيها المُعاصِرين، وأنا المَشْغُوفُ بِجمالِ الخَطِّ العَرَبيّ.

وَدِنْتُ لَهُ ثانِيًا مُؤَرِّخًا حينَ بدَأتُ بمرحلةِ الدّراساتِ العليا، كما ينبغِي أَنْ يَدِينَ لَهُ أَيُّ باحِثٍ في تاريخِ الأدبِ العَرَبيّ وتاريخ العرب عامَّةً في جميعِ مجالاتِ البحثِ وفنونِه؛ فقد كان كتابُه (الأعلام) مِفْتاحًا عَجَبًا لِكُلِّ بابٍ مُغْلَقٍ.

إنّه خيرُ الدّين الزّركليّ، وما أدراكَ ما خيرُ الدّين؟!

عَلَمٌ مِن أهمّ الأعلام في القرن الرّابعَ عَشَرَ الهجريّ العشرينَ الميلاديّ، إذ كان شاعرًا مُجَدِّدًا رائِداً في شعرِهِ الوطَنِيِّ والقَوْمِيِّ

والإنسانيّ، فهو كما وُصِفَ «مِن أكبرِ شعراءِ القَوميّة العربيّة، ومن أرقّهم عاطفةً، وأصفاهم أُسلوبًا» [انظر: مقدّمة ديوان خير الدّين الزركليّ: ١٧، مؤسّسة الرّسالة، ١٩٨٠]، وكان في سوريةَ «رائِدَ الشّعرِ الوطنيّ في القرنِ العِشْرِين» [مقال: بعد أكثر من ثلاثين عامًا على رحيله: أ.د. محمود الرّبداوي، صحيفة الثّورة، الصّفحة الثّقافيّة: ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٨م.].

وهو صَحَفِيٌّ مِنَ السّابقينَ الأوّلينَ في تاريخِ الصِّحافَةِ الشّاميّةِ والعربيّة.

وسياسيٌّ أَحَبَّ العروبَةَ والعَرَبَ عامّةً والشّامَ وسوريّةَ خاصَّةً، وناضَلَ مَن أجلِ خَيْرِ أُمَّتِه، ونالَهُ ما ينالُ كُلَّ مناضِلٍ صادِقِ النّضال.

وعالِمٌ بالأَدَبِ، ومؤَرِّخٌ لأَعلامِ العرب، قليلُ النَّظير.

وإنَّه لَكِتابُ (الأعلامُ)، وما أَدْراكَ ما كتابُ (الأعلام)؟!

واحدٌ من أهمّ المؤلّفاتِ الّتي صَدَرَت في القرن الرّابعَ عَشَرَ للهجرة العِشْرينَ للميلاد، حتّى اليوم.

فالمؤلِّفُ والمؤلَّفُ معروفانِ مشهورانِ لا يخفَيانِ إلّا على مَنْ لَمْ يَسْتَضِئْ بِشَمْسِ العِلْم وبَدْرِه؛ فما أصعبَ أن تَصِفَ إشراقَ الشَّمْسِ، وحلاوةَ الشَّهْدِ، وشَذَى الطِّيب، ورِقَّةَ الصّوتِ، لِذِي عَيْنَيْنِ ولسانٍ وشَفَتَيْنِ وأَنفٍ وأُذُنَيْن!

وقَدْ دُفِعْتُ إلى موقِفٍ مُحْرِج مَهِيبٍ، لأَنَّني أعلَمُ أنَّ كَثِيرًا مِن أهلِ العلمِ والباحِثينَ، وأهلِ خَيرِ الدّين وأصحابِهِ وأحبابِه، أعلمُ منِّي بالرّجُلِ وكِتابِه؛ ولذا يؤسفني أنّني لا أكادُ أضيفُ جديدًا، ولكنْ لا أقولُ كما قالَ عَبيدٌ: (حالَ الجَرِيضُ دُونَ القَرِيض)، إذ لا بُدَّ مِن القَوْل، ولهذا قسمتُ الكلامَ على عنواناتٍ ثمانية:

١ - وصْفُ الكتاب:

استَقَرَّ (الأعلامُ) في طَبْعَتِهِ الرّابِعةِ على هيئتِه الّتي أرادَها صاحِبُه، وكانَ يُعِدُّ لها قبلَ انتقالِهِ إلى جِوارِ ربّه، وهيَ الطَّبْعَةُ المُعْتَمَدَةُ، وقَدْ صُوِّرَتْ مِرارًا بعدَ ذلك؛ وجاءَت في ثمانيةِ مُجلَّداتٍ من القَطْعِ الكبيرِ، وقارَبَتْ صَفحاتُه ثلاثةَ آلافٍ (٢٧٥٠)، تَعْدِلُ كُلُّ صفْحَةٍ ثلاثَ صَفَحاتٍ من قياسِ الكُتُبِ الشّائع، وجُعِلَتْ كلُّ صفحةٍ من صَفَحاتِ التَّراجِمِ على ثلاثةِ أعمِدَةٍ كأعمدةِ الصُّحُف، وزادَ عددُ المُتَرْجَمِينَ على ثلاثَةَ عَشَرَ ألْفًا وأربعَ مِئَة (١٣٤٥٣).

٢ - تاريخُه:

بلَغَ (الأعلامُ) مَبْلَغًا منَ النُّضْجِ جعلَهُ مَهْوَى أفئدةِ العلماءِ والباحثِينَ، بعدَ أن نَما على رَوِيَّةٍ شيئًا فشيئًا، نُمُوَّ بِذْرَةِ التّينِ الّتي لا يُلْقَى لها بالٌ، فيأخذُها خبيرٌ بها، صَبُورٌ على تنشِئَتِها، ويتعَهَّدُها فإذا هيَ بعدَ زمَنٍ شَجَرَةٌ وارفةٌ مِلْءُ العُيونِ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حينٍ، ويتفَيَّأُ النّاسُ ظِلالَ أفنانِها، وتُغَرِّدُ الطَّيْرُ بَينَ أغصانِها؛ شَأنُهُ في ذلكَ شأنُ أيِّ عَمَلٍ عظيمٍ يحتاجُ إلى حَقِّهِ مِنَ الخِبْرَةِ والصَّبْرِ والوَقْت.

بدأَت فكرَةُ الكتابِ وجمعِ مادَّتِه تُراوِدُ الزّركليّ عامَ (١٣٣٠ هـ = ١٩١٢ م) وهو ابنُ عشرينَ عامًا [انظر: الأعلام ١: ٢١].

ثمّ أصدَرَهُ بعدَ خمسَةَ عشَرَ عامًا (١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م) في ثلاثةِ مُجَلَّداتٍ بلغت صفَحاتُها نحوَ ألفٍ ومئتَيْنِ (١١٨٧).

ثُمَّ أصدَرَهُ ثانيةً بعدَ ثلاثينَ عامًا (١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م)، تتبَّعَ خلالَها ما أخرجتهُ دُورُ الطّباعة من مُصَنّفات السِّيَرِ والأحداثِ

والـتّـراجم، فاسـتَدْرَكَ منهـا بَعْـضَ مـا فاتَـهُ مـن الـتّـراجم، وأحـالَ إلى صَفحاتِ المطبوعِ مِمّا كانَ رَجَعَ إليهِ مخطوطًا في الطبعـة الأولى، وأضـافَ تواريخَ الوَفَيـاتِ ورتَّـبَ مَـنْ اتّحَدَتْ أسماؤُهم وأسماءُ آبائهم بحَسَبِ وَفَيـاتِهم لِيُسَهِّلَ عـلى القـارئ الوصـولَ إلى التّرجَمَـةِ المطلوبَـةِ، وأضـافَ تَراجِمَ عددٍ من المستَشْرِقينَ لِما قدَّمَهُ بَعضُهم مِـن خدمَـةٍ للعَرَبيّـة، ورأى أنّ للمُتَقَدّمينَ خُطوطًا تركوها على المؤلَّفاتِ تَحُلُّ مَحَلَّ صُورِ المُعـاصِرينَ هِيَ فَضْلًا عن قيمَتِهـا الأثَريّـةِ«فِلَذٌ مِن أرواحِ أصحابِها أبَدِيَّـةُ الحَيـاةِ، يَكْمُـنُ فيهـا مِـن معـانِي النُّفـوسِ مـا لا تُعْـرِبُ عنـهُ صُـوَرُ الأجسام»، فحَرِصَ على التقاطِها مِنْ مخطوطاتِ المُصَنّفاتِ، وأمَدَّهُ أصحابُهُ الـبَرَرةُ بِـصُوَرِ كُـلِّ نَفـيسٍ منهـا، فجعلَهـا مُـصاحِبَةً لِـتَراجِمِ أصـحابِها [انظـر الأعـلام ١: ١٣ - ١٦]، فغـذّاهُ وأغنـاهُ بكـلّ ذلـك حتّـى جـاءَ ثَلاثَـةَ أضعافِ طبعتِه الأولى، في عَشَرَةِ مُجَلَّداتٍ.

ثُمَّ أصدَرَهُ ثالثَةً بعد نحو عَشَرَةِ أعوام (١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م) إصدارًا قريبًـا مـن إصـدارِه الثّـاني جاء في أحَـدَ عَشَرَ مُجَلَّدًا، عاشِرُهـا (مُسْتَدْرَكٌ)، وحـادي عَـشَرِها للـصُّوَرِ الخُطـوط، ومـا بـينَ خـيرِ الـدّينِ يومئذٍ والثّمانينَ إلّا بِضْعُ سِنين، كما قالَ في مقدّمته [الأعلام ١: ١١].

وبَعْدَ عامٍ (١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م) أصـدَرَ (مُسْتَدْرَكًا) ثانِيًـا عـلى حِدَةٍ.

وأعَـدَّ (مُـسْتَدْرَكًا) ثالِثًـا لمْ يَطبَعْـهُ، إذْ رأى خـيرًا مـن تَكْـرارِ المستدرَكاتِ أنْ يُعِدَّ كتابًا بِعُنوان (الإعلام بما لَيْسَ في الأعلام) في أربعةِ مجلَّداتٍ أو خَمْسَةٍ، غَيْرَ أنَّه بَدا لَهُ أنْ يُعِيدَ إصدارَ (الأعلام) إصدارًا رابعًا يَلُمَّ شَعْثَ كلَّ ما سَلَفَ مِن الطّبعـة الثّالثـة وجميعِ مـا اسـتدركَهُ عليهـا؛

فقالَ في مُسَوَّدَةِ مُذَكِّرَةٍ كتبها لتكونَ مقدَّمةً مُوجَزَةً لهذا الإصدارِ الأخير:

« بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطّبعة الرّابعة

تشتمل هذه الطبعة (الرابعة) من (الأعلام) على ما يأتي:

١ - الأعلام، الطبعة الثالثة، في بيروت سنة ١٣٨٩هـ (١٩٦٩ م)، أحد عَشَرَ (أو اثني عشر) مجلّدًا، منها تسعة مجلّدات للتراجم، والعاشر (المستدرك) والجزآن الأخيران، مجلّد واحد سُمِّي المجلد الحادي عشر، للخطوط والصُّوَر.

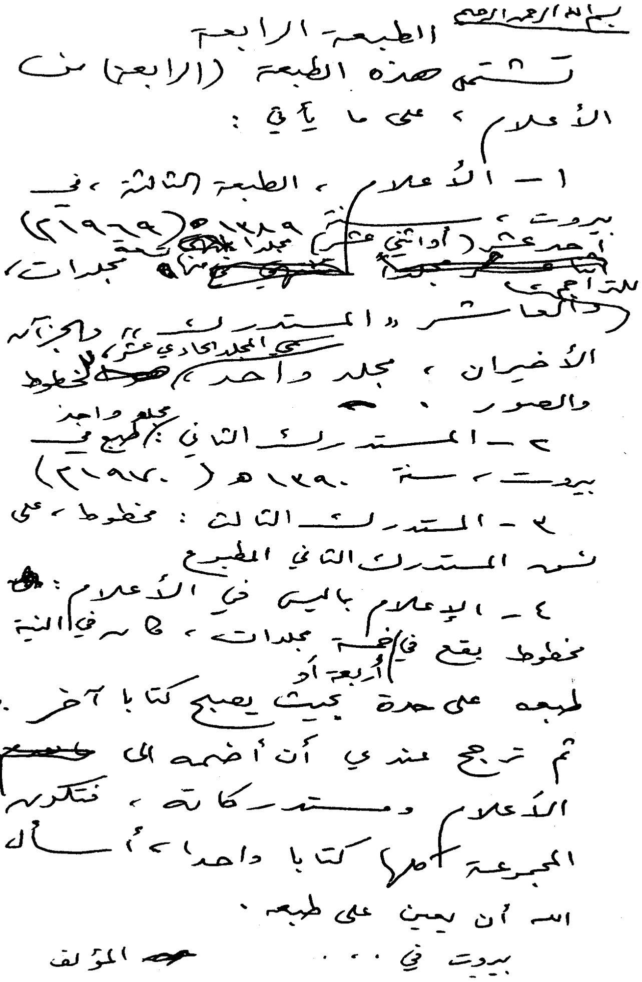
٢ - المستدرَك الثّاني: مجلّد واحد طُبع في بيروت، سنة ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م).

٣ - المستدرك الثالث: مخطوط، على نسق المستدرك الثاني المطبوع.

٤ - الإعلام بما ليس في الأعلام: مخطوط يقع في أربعة أو خمسة مجلّدات، كان في النّيّةِ طبعُه على حِدَةٍ بحيث يصبح كتابًا آخَرَ، ثُمَّ ترجَّحَ عندي أن أضمَّهُ إلى (الأعلام) ومستدركاتِه فتكونَ المجموعةُ كلُّها كتابًا واحدًا؛ أسأل اللهَ أن يعينَ على طبعه.

بيروت في....، المؤَلِّف».

وتَرَكَ مكانَ التّاريخِ (فارِغًا)، وسأَلَ اللهَ تعالى لِكِتابِهِ«أنْ يُعِينَ على طَبْعِه» ولم يَقُل (أنْ يُعينَنِي)، وكأَنَّه كانَ - وهو ابنُ سِتٍّ وثمانينَ سَنَةً هِجْرِيَّة، ثلاثٍ وثمانِينَ ميلاديّة - يستَشْعِرُ أجَلَهُ قبلَ أن يَرَى كتابَهُ على النّحوِ الّذي أرادَ، وتَرَكَ مكانَ التّاريخِ فارِغًا لِيُدَوِّنَ تاريخَ إنجازِهِ غَيْرُه؛ ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتاب!


بسم الله الرحمن الرحيم
الطبعة الرابعة
تشتمل هذه الطبعة (الرابعة) من
الأعلام، على ما يأتي:
١ - الأعلام، الطبعة الثالثة، في
بيروت، سنة ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)
أحد عشر (أو اثني عشر) مجلداً
للتراجم
والعاشر «المستدرك» وأجزاؤه
في المجلد الحادي عشر
الأضيان، مجلد واحد للخطوط
والصور.
٢ - المستدرك الثاني، مطبوع في
بيروت، سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) مجلد واحد
٣ - المستدرك الثالث: مخطوط، على
نمط المستدرك الثاني المطبوع
٤ - الإعلام بما ليس في الأعلام:
مخطوط يقع في أربعة أو خمسة مجلدات، ... رغبت في
طبعه على حدة بحيث يصبح كتاباً آخر.
ثم ترجح عندي أن أضمه إلى
الأعلام ومستدركاته، فتكون
المجموعة كلها كتاباً واحداً، أسأل
الله أن يعين على طبعه.
بيروت في ...   المؤلف

وبعدَ أنْ وافاهُ الأجَلُ بثلاثِ سنواتٍ صدرَتِ عامَ (١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م) الطّبعةُ الرّابعة الّتي صُوِّرَت عنها الطَّبعاتُ التّاليةُ بِجُهْدِ أصدِقاءِ خَيْرِ الدّينِ، مستنيرينَ بضِياءِ مُسَوَّدَةِ المُذَكِّرَة الّتي أرادَها مُقَدِّمَةً، فخرجَ الكتابُ في ثمانيةِ مُجَلَّداتٍ على النّحوِ الّذي سَبَقَ وَصْفُ الكتابِ به.

٣ - مضمونُـه :

إنَّ عُنوانَ الكِتابِ أو البَحْثِ بمنزلة الوَجْهِ مِن الإنسان، يُنْبِئُ بِشْرُهُ وبَهْجَتُهُ وطلاقَتُهُ على ما في نفسِ صاحِبِهِ من الخَيْرِ والمَعْرُوف؛ وللخَنْساء في هذا المعنى:

دَلَّ على مَعْرُوفِهِ وَجْهُهُ   بُورِكَ هذا هادِيًا مِنْ دَليلْ

وخَيْرُ العُنواناتِ ما دلَّ على مَضْمُونها، وهذا ما كانَ عليه عُنوانُ كتابِ خيرِ الدّين، إذ جَعَلَ عنوانَ الطّبعةِ الأولى:

(الأعلام
قاموسُ تَراجِمَ لأشهرِ الرّجالِ والنّساء من العرب والمستعرِبينَ
في الجاهليّة والإسلام والعصرِ الحاضِرِ)

ثُمَّ جعلَهُ في طبعته الثّانية وما بعدَها:

(الأَعلامُ
قامُوسُ تراجمَ
لِأَشْهَرِ الرِّجالِ والنّساءِ مِنَ العرَبِ والمُسْتَعْرِبينَ والمُسْتَشْرِقِين)

وكانَ خيرُ الدّينِ على بَيِّنَةٍ وهُدًى من أمْرِ كِتابِهِ كُلِّهِ مِن أوَّلِ ما طَبَعَه، وكَلامُهُ في مقدّمةِ الطّبعة الأولى يُفَصِّلُ ما أجمَلَهُ في عنوانه الدّالِّ على مَضْمُونِه، إذ بَيَّنَ فيها أنَّ الإحاطَةَ بأسماءِ «كلِّ مَن عَرَضَ له خَبَرٌ، أو دُوِّن له اسمٌ في تاريخِ العربِ والمستعرِبين، مِن جاهليّين وإسلاميّين، متقدِّمين ومتأخِّرين» لا يقومُ بِهِ فَرْدٌ، فاكتفى «بأشهر الرّجال والنّساء ذكرًا، وأثبتِهم في صحيفةِ الأجيال عَمَلًا» [الأعلام ١: ١٩].

ولمّا كان الأمرُ قائمًا على اختيارِ المُتَرْجَمينَ لم يكنْ بُدٌّ من ميزانٍ وضابِطٍ، وقد بيّن ذلك بقولِه: «**ميزانُ الاختيار**: أن يكونَ لصاحب الترّجمة عِلْمٌ تشهدُ به تَصانيفُه، أو خِلافةٌ أو مُلْكٌ أو إمارة، أو مَنْصِبٌ رفيعٌ -كوزارةٍ أو قَضاء - كان لهُ فيه أثرٌ بارز، أو رئاسَةُ مَذْهَبٍ، أو فَنٌّ تميَّزَ به، أو أثرٌ في العِمْرانِ يُذْكَرُ له، أو شِعرٌ، أو مَكانَةٌ يتردَّدُ بها اسمُه، أو رِوايةٌ كثيرةٌ، أو أن يكونَ أَصْلَ نَسَبٍ، أو مَضْرِبَ مَثَلٍ. **وضابِطُ ذلك كلِّه**: أنْ يكونَ مِمَّنْ يتردَّدُ ذكرُهُم ويُسْأَلُ عنهم» [الأعلام ١: ١٩].

وبيّنَ أنّهُ تجنَّبَ ترجمةَ الأحياءِ من المعاصِرين «مَخافةَ الوقوعِ فيما لا أَحْمَدُ، والإنسانُ قد يتغيَّرُ» [الأعلام ١: ١٩].

٤ - منهج (الأعلام) ومزاياه:

سَبَقَ أنَّ خيرَ الدّينِ كانَ على بَيِّنَةٍ مِن أمْرِهِ كُلِّهِ مِن أوَّلِ ما طَبَعَ كتابَه، ومِنْ ذلكَ أمْرُ مَنْهَجِه في ترتيبِ التّراجِم، ووَفَياتِهم، والإحالةِ على المَصادِرِ والمَراجع، ووضْعِ صُوَرِ المُعاصِرين؛ ثمَّ أضافَ الخطوطَ والتّوقيعاتِ وأشباهَها.

أ - ترتيب التّراجم:

للعُلَماءِ الّذينَ أَلَّفُوا في التّراجِمِ العامَّةِ أوِ الخاصَّةِ بِفِئَةٍ من النّاسِ طرائقُ مختلفَةٌ في ترتيبِ مُصَنَّفاتِهم، فمنهم مَن رَتَّبَ كتابَهُ على طَبَقاتٍ، ومَنْ رتَّبَهُ على تواريخِ الوَفَيات، ومَنْ رتّبَهُ على بُلْدانِ المُتَرْجَمين، ومَنْ رتّبَهُ على المؤتلفِ والمُختلفِ في الرّسم، ومَنْ رتّبَه على العلومِ الّتي بَرَعَ فيها المُتَرْجَمون، ومنْ رتّبَهُ على حروفِ المُعْجَم، ومنهم مَن جمَعَ بين طريقتَين مِمّا سبق، ومَن ساقَ تراجِمَهُ بلا ترتيبٍ مُعَيَّن.

فأمّا خيرُ الدّين فقد اختارَ **ترتيبَ المُعْجَم أَلِفْبائيًّا**، ولذلكَ وَصَفَ (الأعلامَ) في عُنوانِهِ بأَنَّهُ (قامُوسٌ)، مُتَأَسّيًا - فيما يبدو - بالعنوانِ الّذي اختارَهُ العَلّامَةُ الفَيْروزأباديُّ لِمُعْجَمِه (القامُوس المُحيط)، أي البحر المحيط، كما تأسَّى بِه قبلَ الزّركليِّ الطَّبيبُ (مَدْيَنُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ القوصونيّ المتوفَّى بعدَ سنةِ ١٠٤٤ هـ = ١٦٣٤ م) في عنوان كتابِه (قاموس الأطبّاء وناموس الألبّاء) [انظر: معجم المؤلفين ١٢ : ٢١٣، والأعلام ٧ : ١٩٨]، إذ اكتَسَبَ لفظُ (القاموس) معْنًى جديدًا هو (المعجَمُ) لِشُهْرَةِ كتابِ الفيروزأباديّ، وأصلُ معنى القاموس «قَعْرُ البَحْرِ، وَقِيلَ: وسَطُه ومُعْظَمُه» [لسان العرب (قمس)].

وقد بيّن خير الدّين طريقتَهُ في التّرتيب في مقدمة الطّبعة الأولى فقال: «**ترتيب الكتاب:** ورتَّبْتُهُ على الحروف، مبتدئًا بحرفِ الاسمِ الأوّل، ثُمّ بِضَمِّ ما يليه إليه، فيكون (آدمُ) قبل (آمنة) لتقدُّم الدّالِ الميمَ، و(آمنة) قبلَ (إبراهيم) لألفين في بدء الأوّل، و(محمَّد) قبل (محمود) لِسَبْقِ الدّالِ الواوَ، ... وهكذا» [الأعلام ١: ٢٠].

وراعى في التّرتيبِ أمْرًا آخَرَ، وهو **إهمالُ بعضِ ألفاظٍ تأتي في أسماءِ المُتَرْجَمين**، فقال: «أمّا ما كان مبدوءًا بلفظِ (أبٍ) أو (أمّ) أو (ابن) أو (بنت)، كأبي بكر، وأمّ سلَمة، وابنِ أبيه، وابن أبي دُؤَاد، فعدَدْتُ الأبَ والأُمَّ ونظائرَهما لَغْوًا، وجعلت (أبا بكر) في حرف الباء مع الكاف وما يتلُوهما، ...» [الأعلام ١: ٢٠].

كما راعى أمرًا ثالِثًا في التّرتيب، وهو **رَسْمُ الحَرفِ**، فالألفُ المقصورةُ رَسْمُها رَسْمُ الياءِ، والهمزةُ المكتوبةُ على الواو رَسْمُها رَسْمُ الواو، والمكتوبةُ على الألف رسمُها رَسْمُ الألف، والمكتوبةُ على الياءِ

غيرِ المنقوطةِ رسمُها رسمُ الياء، والعَرَبُ مِمَّا تُسَهِّلُ هذه الهَمزات فتلفظها واوًا أو ألفًا أو ياءً؛ ولذلك قال: «واتَّخَذْتُ رَسْمَ الحروفِ أساسًا، فجعلْتُ (صَدى) في حرف الصّاد مع الدّالِ والياء، و(مُؤمنًا) في حرفِ الميمِ معَ الواو» [الأعلام ١: ٢٠].

ووجد أنّ الرَّجُلَ قد يُنْسَبُ إلى أحدِ جدودِه، «فتتكرَّرُ في المصادر ترجمته، كمحمَّد بن غازي - مثلًا - وهو محمَّد بن أحمد، ومثلُه محمَّد بن جابر (محمَّد بن أحمد)» [الأعلام ١: ١٧]، فتجنَّبَ تكرارَ ترجمةِ أمثالِهما، وأحال إلى الأوّل في (ابن غازي) وإلى الثّاني في (ابن جابر)، فقال: «ابن غازي = محمد بن أحمد ٩١٩»، و«ابن جابر (الأندلسي) = محمد بن أحمد ٧٨٠».

وأثبتَ **أسماءَ المُتَرْجَمين من المستشرقين بالحروفِ العربيّة** كما يَنْطِقُ بها غالبُهُم، ولكنّ الاسمَ الواحِدَ منها قد يختلفُ نُطقُهُ بينَ أُمَّةٍ وأُخرى، كأنْ «يكون المُسمَّى إنكليزيًّا (Charles): فيلفظه الإنكليز (تشارلس)، ويجعلُه مَن يأخذُه عن الفرنسيّة (شارل)، وعن الإسبانيوليّة (كارلوس)، وعن الإيطاليّة (كارلو)، وعن الألمانية (كارل)» [الأعلام ١: ١٤]، ولذلك كرَّر الإحالةَ إلى موضع التّرجمة في مَظانِّ وجودِها.

ب - الاهتمام بتاريخ الوفَيات:

لَيْسَ الاهتمامُ بوَفَياتِ المُتَرْجَمينَ بِدْعًا بدأَهُ الزّركليّ، فهو مِمّا التَفَتَ إليهِ أصحابُ كُتُبِ التّراجِم العامَّةِ والخاصّةِ منَ القرونِ الأولى إلى اليوم، فكانُوا يُؤَرِّخُونَ وفاةَ المُتَرْجَم بالعامِ أو بحادثةٍ مَشْهورةٍ أو بِعَهْدِ خليفةٍ أو مَلِكٍ أو أميرٍ أو نَحْوِ ذلك، كطَبَقاتِ ابنِ سَعْدٍ ومعجم

الشّعراء للمرزُبانيّ والأغاني للأصفَهانيّ، واهتمّ بهذا كَثيرٌ مِن أصحابِ كُتُبِ التّاريخِ العامّةِ والخاصّةِ، كالطَّبَريِّ في تاريخه وابن عساكر في (تاريخ دمشق) والذَّهَبيِّ في (تاريخ الإسلام) والقلقَشَنْديّ في (مآثر الإنافة)؛ بل إنّ عددًا من العلماءِ سَمَّوْا كتُبَهُم أسماءً دالّةً على هذا الاهتمام، كـ(وَفَياتِ الأعيانِ) لابنِ خِلِّكان و(الوافي بالوَفَيات) للصَّفَدِيّ؛ ولهذا الاهتمام مُسَوِّغاتٌ وفوائِدُ يَعْرِفُها المُحَدِّثونَ والمؤَرِّخون وأصحابُ الأخبارِ والتَّراجِم، ولا سيّما في توثيق الرّواة وتصحيح الأحاديث والأخبار؛ وكانَ التّأريخُ يعتمدُ على سنواتِ الهِجْرة، غير أنّ الزّركليّ **راعَى الجَمْعَ بينَ التاريخَيْنِ الهجريّ والميلاديّ** كما فعلَ عددٌ مِنْ معاصِريه.

ولم يكُنِ أمْرُ الجمعِ بينَ التّاريخَيْنِ بالهَيِّن، وقد أفصَحَ عمّا عاناهُ في ذلك فقال: «وَلَقِيتُ عَناءً في التّوفيق بينَ التّأريخَيْنِ الهجريِّ والميلاديّ، لإغْفالِ أكثرِ المؤرِّخينَ ذكرَ الشَّهْرِ الّذي وُلِدَ فيه صاحبُ التّرجمة أو تُوُفِّي، فكنت أقفُ أمامَ المولودِ أو المتوفَّى سنةَ ٤٣٥ هـ (مثلًا) فأَرى سنة ١٠٤٣ الميلاديّة تنتهي في جُمادى الأُولى، وهو الشّهر الخامسُ مِنَ السَّنة، فلا أدري أكانتِ الولادةُ أو الوفاةُ في أوّلِ السّنةِ فتُطابِقَها سنة ١٠٤٣ م، أم في آخِرِها فتوافقَها سنةُ ١٠٤٤؟ ولم يكنْ أمامي بعدَ إطالةِ البحثِ عنِ الشّهر غيرُ التَّرْجيحِ معَ فَقْدِ المُرَجِّح، ..» [الأعلام ١ : ٢١].

ومِمّا عاناهُ في الوَفَياتِ تحديدُ **وَفَياتِ الجاهليِّين**، وبيَّنَ هذا بِقَوْلِه: «وجاءَ دَوْرُ الجاهليِّين، فَرَاعَني مِنْ بعضِ المُعاصِرينَ إقدامُهم على تأريخِ وَفَياتِهم جازِمينَ مُطْلِقِين، غيرَ متردِّدِينَ ولا مُقَيِّدِين، في حينِ أنَّ جاهليَّةَ العرَبِ وما انطوَتْ عليه مِنْ حَضارَةٍ وَبَداوَةٍ، ما بَرِحَتْ مِنْ أسرارِ

التّاريخ الغامِضة، لم يَكْشِفْ حجابَها تَنْقِيبٌ، ولم يأتِنا بِنبَأِها عَلِيم، وما استنتاجُ المُعْتَمِدِ على الأَنْسابِ وأخبارِ الأَعرابِ إلّا ضَرْبٌ من الحَدْسِ والتَّخْمين ...، ذلكَ ما اضْطَرَّني إلى التّنبيهِ حِينًا بلفظِ (نَحْوَ) وإلى إغفال التاريخِ أحيانًا» [الأعلام ١ : ٢١].

وما كانَ أَسهَلَهُ أنْ يَفعَلَ الزِّرِكليُّ ما فَعَلَ غَيْرُه من مُعاصِرِيه، فيُحَدِّد تاريخَ وفاةِ المُتَرْجَمِ اعتباطًا بناءً على سِلْسِلَةِ نسَبِهِ وتقديرِ عُمُرِ كلِّ جِيلٍ أو نحوِ ذلك، ولكنَّ التّاريخَ أمانَةٌ عندَ العالِمِ العاقِلِ الأمينِ، فلا يُجِيزُ لِنَفْسِهِ أنْ يَرْتَجِلَ شيئًا منه بناءً على ظَنِّهِ وحَدْسِهِ وتخمينِه؛ لأنّ في هذا إفسادًا للتّاريخِ وانحِرافًا عِلْمِيًّا وأخلاقِيًّا يتجَنَّبُهُما الصّادقونَ المُخلِصون، ومِن خُطورةِ هذا الارتجالِ أنّهُ يَصيرُ بعدَ زمَنٍ كأنّه تاريخٌ حقيقيٌّ.

ج - الإحالة على المصادر والمراجع:

غَيْرُ خافٍ أنّ الإحالةَ على المظانِّ تعطي القارئَ مفاتيحَ يدخلُ بها إليها، فإن شاءَ راجَعَ ما يشُكُّ في أمرِه، أو قوَّمَ خطَأً في الطباعة، أو نبّه على سَهْوٍ وقع به الكاتب، أو توسّعَ في القراءة والبحث.

ثُمَّ إنَّ مَنْ أحالَ على مَصادِرِهِ أبْرَأَ الذِّمَّةَ ودَفَعَ التُّهْمَة، إذ تُعَدُّ الإحالةُ على المصادِرِ والمَراجِعِ ضَرْبًا مِنَ الإسناد، وقد قِيلَ قديمًا: «مَنْ أسنَدَ فقد أحالَك»، وقيلَ: «إذا رَوَيْتَ فأَسْنِدْ»، وعَدُّوا إسنادَ الحديثِ ضَرْبًا مِنَ الدِّين، إذْ «لولا الإسنادُ لقالَ مَنْ شاءَ أن يقولَ ما شاء» [انظر: بيان مشكل الآثار ١٥ : ٦، وشرح نُخْبَةِ الفِكَر ١ : ٢٣٩، وسير أعلام النّبلاء ١٧ : ٢٢٤، ورفع الحاجب عن مختَصَر ابن الحاجب ٢:

٤٦٨]؛ هذا إذا كانَ العِلْمُ فيما يَخُصُّ الدّينَ، أو كانَ موجَّهًا إلى طبقةِ العلماءِ في أيّ فنٍّ من فنونِ العلم، لأنّ الإسنادَ يُعينُ على تَمْييزِ الصَّحيحِ مِنَ الضَّعيفِ والحَقِّ مِنَ الباطِلِ، أمّا إذا كانَ المَقصُودُ طبقةَ صِغارِ الطَّلَبَةِ وعامّةَ النّاسِ كانَتِ الإحالَةُ عِبْئًا عليهم، وتشتيتًا لانتباهِهم.

وكانَت غايَةُ الزركليّ أوَّلَ ما بدَأَ بجمعِ مادَّةِ (الأعلام) أن يجعَلَه مَرْجِعًا للطّلَبَةِ، فأغفلَ أسماء المصادر الّتي أخَذَ مادَّتَه منها، ثمّ رأى أنّ الرّاغبينَ في الكتابِ سيكونُونَ فوقَ ذَلك، فتَدَارَكَ ما استطاعَ تدارُكَهُ مِمّا أغْفَلَه، قال: «وكان مِن بَواعِثِ أسَفي أنّي عامَ باشَرْتُ جمعَ الكتاب وتَلْخيصَ مادَّتِه (سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م) لم أُعْنَ بتقييدِ المصادر، ذَهابًا إلى أنّ الكتاب سيكونُ (مُعْجَمًا مدرسيًّا) كأحدِ معاجم اللُّغة، ولم تَبْدُ لي ضَرورةُ إثباتِ المصْدَرِ إلّا بعدَ تفرُّقِ كُتُبي واجتماعِ جَمْهَرَةٍ كبيرةٍ من التّراجِمِ لديَّ، فأعَدْتُ الكَرَّةَ على ما تيسَّرَ الرُّجوعُ إليه، فاستدركْتُ شيئًا ممّا فاتَ، فأسْنَدْتُه إلى بعضِ أصولِه، وبقيَ غيرُ القليلِ غُفْلًا مِنَ الإِسناد» [الأعلام ١: ٢١].

كانَ هذا في الطّبعةِ الأولى، فلمّا كانت الثّانيةُ استدرك معظَمَ ذلك، إذ مَضتْ ثلاثونَ عامًا استثمَرَها بتهذيبِ الكتابِ وتَوسيعِه، باستدراكِ ما فاته من تراجم، أو بإضافةِ أُخرى ظهَرَتْ في أمّهاتِ كتب التّراجم والتّاريخ التي طُبِعت في ذلك الوقت، وأحالَ على ما طُبِع مِمّا كان أحالَ عليه مخطوطًا، وزادَ في أسماء مصادر التّرجمات.

وهكذا فعلَ فيما أضافَه في الطّبعة الثّالثة وما استدركه عليها إلى أن ظهرت الطّبعة الرّابعة، وبلغت صَفَحاتُ مَسْرَدِ مصادر (الأعلام) المطبوعةِ والمخطوطة فوقَ خمسٍ وسبعينَ صفحةً، ضَمَّتْ أكثرَ من ألفِ

مصدَرٍ ومَرجِع، فضْلًا عمّا رآه أو سمعه أو شارَكَ فيه من الحوادث، وكان يُشير إليه في حواشي (الأعلام) أو مَتْنِه، وكذلك الرّسائل الخاصَّة الّتي كانت بينه وبين المُتَرْجَمِينَ المعاصرين الّذين أدركهم أحياءً، أو بينه وبين ذَوي مَن مات منهم.

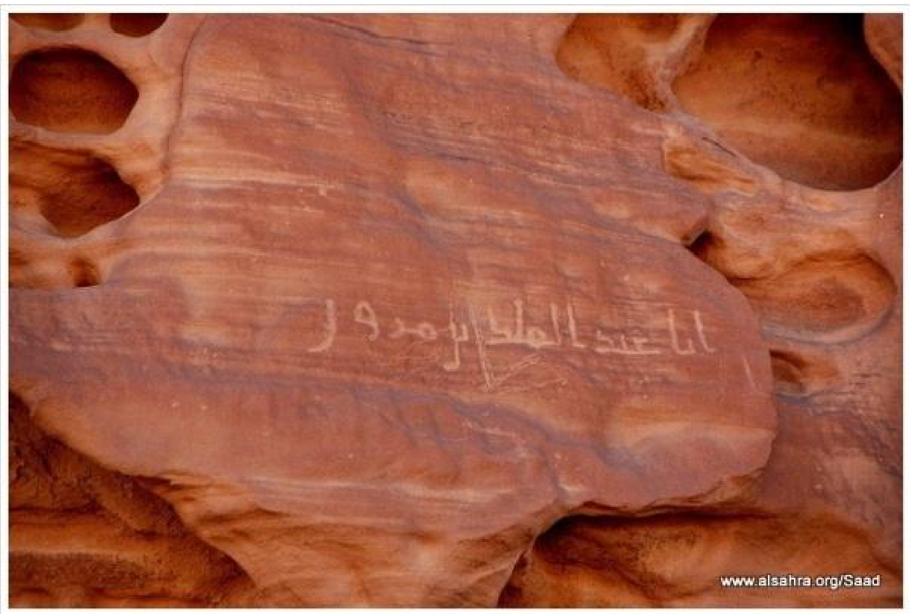
د - اختيارُ صُور المُتَرجَمين أو صور خطوطهم أو بعض ما يخُصُّهم:

أَمَّا صُوَرُ المُتَرْجَمِينَ فهي مِمّا أفاده خيرُ الدّين مِن عَمَلِهِ في الصّحافةِ قبلَ بَدْئِه بتأليف (الأعلام)، لأنّ للصُّورةِ مكانةً بارزَةً في الصّحافة، ولذلك تُدَرَّسُ مادَّةً قائمةً بنفسِها في كلّيّاتِ الإعلام وأقسامِ الصّحافة، وقد خَبِرَ الزّركليّ قيمةَ الصُّورة وتأثيرَها حين وضَعَ في مجلّة (الأصمعيّ) الأسبوعيّة التي أصدَرَها عام (١٩١٢م) صُورةً مُتَخَيَّلَةً للخليفة (المأمونِ) كتب أنها صورة «الخليفة العربي المأمون»، فصادَرَها الاتّحاديُّون الأتراك، لِما فيها مِنْ شعورٍ قوميٍّ عربيٍّ استفَزَّهم.

وأمّا الخطوطُ ونَحْوُها فَمِمّا دلَّتْهُ عليهِ فِطْنَتُهُ إلى دَلالَتِها على نُفُوسِ أصحابِها، وهو مِمّا يَعْرِفُهُ خُبَرَاءُ الخُطوط، كما دَلَّهُ عليه صَنِيعُ بعضِ القُدَماء، معَ أنّه قالَ إنّ بدايةَ أمرِها كانَ (مجَانَةً) ثمّ تمكَّنَ مِنْهُ فصارَ «شُغْلًا شاغِلًا!» [الأعلام ١ : ١٦]؛ فقد خَطَرَ لهُ أنّ هذه الخطوطَ والتوقيعاتِ والتّمَلُّكاتِ تَحُلَّ مَحَلَّ الصُّورة، فراح ينقِّب عنها في مظَانِّها «في أوائل كُتُبِهم وأواخِرِها وبينَ سطورِ ما نُسِخَ على عَهْدِهِمْ مِنْها»، وأعانَهُ على ذلكَ إخوانُهُ وأصدقاؤُهُ وما وجدهُ منها في رِحَلِه ووجَدَهُ في المتاحِفِ وخَزائنِ الكُتُبِ السُّلْطانيَّةِ وغيرِها؛ قال: «**والخطوط، إلى جانب قيمتِها الأثَرِيَّةِ، فِلَذٌ مِن أرواحِ أصحابِها أبديَّةُ الحياة، يَكْمُنُ فيها مِن مَعاني النُّفوس ما لا تُعْرِبُ عنه صُوَرُ الأجسام**؛ والعهدُ بالحِرْصِ

عليها قديمٌ، قال ابنُ النَّديم (١: ٤٠ - ٤١) -وهو مِن أبناءِ القرنِ الخامسِ للهجرة، الحادي عَشَرَ للميلاد - ما مُؤَدَّاهُ: كان بمدينةِ (الحَدِيثَةِ) رجلٌ يُقالُ له (محمّد بن الحسين) أخرجَ لي قِمَطْرًا كبيرًا، خصَّهُ به رجلٌ مِن أهلِ الكوفة، فيهِ أنواعٌ مختلفةٌ مِنَ الورَق، تشتمِل على تعليقاتٍ عنِ العرب وقصائدَ وحكاياتٍ وأخبارٍ وأنساب، وعلى كلِّ جزءٍ أو ورقةٍ أو مَدْرَج، توقيعٌ بخطوطِ العلماء، واحدًا إِثْرَ واحد، يذكر فيه خَطُّ مَنْ هو، وتحت كلِّ توقيعٍ توقيعُ خمسةٍ أو ستَّةٍ من العلماءِ بشهادةِ بعضِهم على خطوطِ بعضٍ، ورأيتُ أربعَ أوراقٍ كُتِبَ عليها أنَّها بخطِّ (يحيى بن يَعْمُر) وتحتَ هذا الخطِّ بخطٍّ عَتِيقٍ: (هذا خَطُّ عَلَّانَ النَّحْوِيّ) وتحتَه: (هذا خطُّ النَّضْرِ بنِ شُمَيْلٍ)؛ قال ابنُ النَّديم: ومات الرَّجل ففَقَدْنَا القِمَطْرَ» [الأعلام ١ : ١٦].

وأقول: لَيْتَ خَيْرَ الدّين بقيَ حَيًّا إلى اليوم، وتابَعَ ما تلتَقِطُهُ آلاتُ التّصْويرِ مِن خُطوطِ أعلامٍ كانُوا في القرنَيْنِ الأوَّلِ والثّانِي الهِجْرِيَّيْنِ وما بَعْدَهما، مِن الصَّحابَةِ وأبنائِهم وأحفادِهم ومَواليهم، ومِن بعضِ الخُلَفاءِ والأمراء وأبنائِهم، وهُمْ في طَرِيقِهم مِن الحجازِ إلى الشّامِ أو مِصْرَ، ومنهما إلى الحجازِ، ومِنَ الحجازِ إلى اليَمَنِ، وهيَ بالمِئِينَ هُنا وهُنالِك على صَفَحاتِ الصُّخُورِ في منازِلِ راحَتِهِم في أسفارِهم؛ إذًا لوضَعَ في كتابِهِ صورَةَ خَطِّ الخليفةِ العربيِّ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوان، وصورة خطّ عيسى بنِ طلحةَ بنِ عُبَيْدِ الله، وصورةَ خَطِّ أمّ سَلَمَةَ بِنْتِ هارونَ الرّشيد أميرِ المؤمنين [انظر موقع (فريق الصّحراء): http://alsahra.org/?p=11163 و http://alsahra.org/?p=16087]، وغير ذلك من الخطوط.



وما سبق من الحديث عن منهج الكتاب ومحتواه يدُلُّ على شيءٍ من مزاياه التي جعلته من أبرزِ كُتُبِ التّراجم العامّة الّتي يُشارُ إليها بالبنان، وجعلت الدّكتور محمود محمّد الطّناحيّ يُهْدِي الزّركليَّ - رحمَهما الله - كتابَه (الموجز في مراجع التّراجم والبُلدان والمُصَنَّفات وتعريفات العُلوم)، ويقولُ في حديثِه عن (الأعلام): «ومحاسنُ هذا الكتاب كثيرة، وإن فاتَنِي ذكرُ هذه المحاسن مجتمعةً، فإنّي أشير إلى أبرزها:

١- الدّقّة البالغة في تحرير التّرجمة، وإبرازُ أهمّ ملامح العلَم المترجَم.

٢- ذكرُ ما قد يكونُ مِن خِلافٍ، في الاسم، والمولد والوفاة، ونسبةِ الكتب، مع اتخاذ مواقف الحسم، أو التّرجيح.

٣- تنقيةُ بعض كتب التّراجم ممّا علِقَ بها، من وهم، أو تصحيف، أو تحريف.

٤- الرجــوع في توثيــق التّرجمــة إلى المــصادر المخطوطــة، إذا عــزَّتِ المطبوعة، أو كانت الثّقةُ بها نازلة.

٥- الاستعانةُ بـالمراجع الحيَّةِ، مِـن أهـل العلـم، والمنتسبين إلى مَـذْهَب المترجَم.

٦- جلاءُ الغموض الّذي يكتنِفُ بعضَ الأعلام.

٧- التّنبيهُ على بعض الفوائد العلميّة.

٨- الإنصافُ والبُعْدُ عن الهوى، وسَوْقُ الرَّأي الخـاصِّ مُلَفَّفًـا في بجـادِ النَّزاهَةِ والتَّصَوُّن. وأكثر مـا تَـرى ذلـك في تَـراجِم المعـاصرين، مِـن أهل الفكر والأدب والسّياسة.

٩- الإحالةُ الذّكيّة بعدَ الفراغ مِن التّرجمة إلى أصولِ المصادر والمراجع.

١٠ - ذكـر نفـائس المخطوطـات ونوادرهـا، الّتـى رآهـا في رحلاتـه وأسـفاره. وكـذلك الّتـى أطْلَعَـهُ عليهـا أصـدقاؤه، وفي مقـدمتهم السّيّد أحمد عبيد، بدمشق، وما أكثرَ ما أشارَ إليه في تعليقاته.

١١ - إثبات صور خطوط العلماء قديمًا وحديثًا...، ويتصل بذلك إثباتُه لتوقيعاتِ الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وصور المُحْدَثِين من المعـاصرين، ومَـنْ قَـرُبَ مـنهم، ممَّـن أدركَهـم فـنُّ التّـصوير الفوتوغرافي.

١٢ - وقد زانَ ذلك كلَّهُ حُسْنُ البَيـان، وصـفاءُ العبـارة، فالرّجـلُ كـان أديبًا شاعرًا..» [الموجز في مراجع التّراجم والبُلدان والمُصَنَّفات وتعريفات العُلوم: ٨٣ – ٨٦].

٥ - صياغة التّراجم:

إذا كان أُسلوبُ الكاتبِ يَدُلُّ عليهِ فإنّ أسلوبِ الزّركليّ في صياغة تراجِمِه يدُلُّ على تكوينه الثقافيّ العربيّ الرّفيع، فهو ميّالٌ إلى الإيجازِ والدّقّة ونصاعة اللّغة وإشراقها وسلاستها، مع الإنصافِ ولزوم جانبِ الحيادِ ما أمكنَه، واختيارِ بعضِ النّصوصِ القيّمةِ الدّالّةِ على بعضِ صفاتِ المُتَرجَمِ أو تاريخه، ممّا يقدّمُ أبرز ملامح المُتَرْجَم.

وقد تجنَّبَ المبالغةَ والزّخرفة اللفظيّةَ الّتي شاعَت في عدد من كتب التّراجِم القديمة والمتأخّرة، فكانَ أقربَ إلى طريقة ابن النّديم في (الفهرست)،والذّهبيّ في (سير أعلام النّبلاء)، والصّفديّ في (الوافي بالوفيات)، وغيرهم من علماء التّاريخ والمحدّثين، وأبعدَ ما يكون من طريقةِ بعضِ مؤرّخي أهل الأدبِ كابن بَسّام في (الذَّخيرة) والخفاجيّ في (خبايا الزّوايا) ممَّن كادَت زخرفتُه اللّفظيّةً تُخْفِي ملامح المُترجَم.

٦ - رأي بعضِ العلماءِ في الكتاب:

استُقْبِلَ (الأعلامُ) أوَّلَ ما استهَلَّ استقبالَ الوَلِيدِ الجَميلِ الّذي طالَ انتظارُ ولادَتِه، فأثنى عليه عددٌ من العلماء وأشادوا بصنيعِ مؤلّفِه،وأشارُوا إلى مزاياه، ونوَّهوا بقيمتِه لِحاجةِ النّاسِ إليه، ونبّهوا على بَعْضِ مآخذهم عليه؛ وممّا يستحقّ الإشارةَ إليه موقفُ الأستاذ محمّد كرد عليّ رئيسُ المجمع العلميّ العربيّ (مجمع اللّغةِ العربيّة) بدمشق مِن الكتاب في طبعته الأولى التي كانت في أربعة أجزاء، فقد كتبَ في العام نفسِه الّذي طُبِعَ فيه (١٩٢٧م = ١٣٤٦ هـ) وهو يتحدَّث عن الجزءِ الأوَّل:

«(الأعلام: قاموسُ تَراجِمَ لأشهرِ الرِّجالِ والنِّساء من العرب والمستعرِبينَ في الجاهليّة والإسلام والعصرِ الحاضِر)؛ تأليف: السّيّد خَير الدّين الزّركلي، الجُزء الأوّل، من أربعة أجزاء، طُبِعَ بالمطبعةِ العربيّة بمِصْرَ، سنةَ ١٣٤٥ – ١٩٢٧. **هذا كتابٌ تَشْتَدُّ حاجةُ النّاسِ إليه**؛ لأنّه جمَعَ ما تَفَرَّقَ من تراجم العرب إلى يومِنا هذا، واقتَصَر مؤلِّفُه على المشهورينَ بالعِلْم والأدب، أو بالسّياسةِ والإمارة، **واكتفى باللُّبابِ ممّا تستدعي الحالُ الكَشفَ عن تراجمهم**، بحيثُ يسقطُ الباحثُ على مَن يريدُ الاطّلاعَ على ترجمته في دقيقةٍ واحدة، **ويُعَدُّ هذا مِن واضِع الكتابِ مِنْ جَميلِ الذَّوقِ في التّأليف، والعِنايةِ البالغةِ في البحثِ يُحمَدُ عليها المؤلّف**، وقد رَجَع إلى **مَظانَّ كثيرةٍ**، وبالَغَ في التّنقيح والأخذِ بالأرجَحِ، ومعَ هذا وَعَدَ أن يُلحِقَ كتابَهُ بما يَسْتَدْرِكُهُ مِن الهَفَواتِ والزِّيادات، وبالجُملَةِ فإنّ هذا القاموسَ يُهَوِّنُ على كلِّ باحِثٍ سُبُلَ الاطّلاع على حياةِ مَنْ كانَ لهم شأنٌ في المجتمعِ العربيّ؛ **لا جَرَمَ أنَّ شُهْرَةَ صديقِنا الأستاذ المؤلّف في عالَمِ الأدَبِ تدعو على الإقبالِ على هذا السِّفْرِ النَّفيسِ الّذي يَشْكُرُهُ العِلْمُ على نَشْرِهِ على هذه الصُّورةِ الجميلة. م.ك**» [مجلة المجمع العلميّ العربيّ بدمشق، المجلّد ٧، الجزء ١٢: ٥٦٥ – ٥٦٦.]

وكتب في مجلّة المجمع تحت عنوان (مطبوعات حديثة)، عن الجزء الثّاني:«(الأعلام): تأليف السّيّد خير الدّين الزركلي – الجزء الثاني – طُبِعَ في المطبعةِ العربيّة بمصر، سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م، هذا الجزءُ الثّاني من هذا القاموس في التّراجم (لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين في الجاهليّة والإسلام والعصر الحاضر)، بَدَأَ بحرفِ (شا) في صفحة (٤٠٣) وانتهى بحرفِ (في) في صفحة (٨٠٣)، وسيبدأ

الجزء الثّالث بحرف الكاف؛ والجزءُ الّذي أمامَنا **كأخيهِ السّالِفِ، فيه تراجِمُ مفيدةٌ** لِمَن يريدُ أن يكشِفَ عليها بِسُرعةٍ؛ **وأكثرُ ما راقَنا مِنهُ:** أنّ الأُستاذَ المؤلّفَ يُشَكِّلُ في الجُمْلَةِ مواضِعَ الشُّبْهَةِ مِن أسماءِ الأعلام، ويضَعُ تاريخَ الوَفَياتِ بمعارَضَةِ التّاريخِ الهجريِّ بالميلاديّ، ويُعْنَى بِذِكْرِ مُصَنَّفاتِ المُصَنِّفين؛ **ومِمّا زادَهُ إمتاعًا:** أنّه ترجَم للمعاصِرينَ، وتوسَّعَ في الكلامِ على الشّامِيِّينَ أكثَرَ مِنْ غَيْرِهم - فيما رأينا في هذا الجُزْءِ - **وعسى أنْ تُراعَى النِّسْبَةُ في الرِّجالِ والأقطار؛ ونرجو للمؤلِّفِ حُسْنَ التّوفيقِ لإتمامِ هذه التُّحفَةِ الجَميلةِ** الّتي أتحَفَ بها الأدبَ، **ونَحُثُّ كلَّ أديبٍ على اقتناءِ (الأعلام)، فإنّهُ قُنْيَةٌ نافعةٌ لكلِّ أديبٍ ومُتَأَدِّب.** م.ك» [مجلة المجمع العلمي العربيّ بدمشق: المجلّد ٨، الجزء ٧: ٤٤١].

ويُلحَظُ أنّ الأستاذ قد أشادَ بالكتابِ إشادةَ المُحِبِّ المُعْجَبِ النّاصح للمؤلِّفِ والمؤَلَّف، العالِمِ بقيمةِ كُلٍّ منهما، فالمؤَلِّفُ (صَديقٌ) مع أنّه من طبقة طُلّابه، و(شُهرَتُهُ في عالَمِ الأدب) لا تخفى على أهلِه، وهو (جَميلِ الذَّوقِ في التّأليف)، والكتابُ مِمّا (تشتَدّ حاجةُ النّاسِ إليه)، وهو (سِفْرٌ نَفيسٌ) و(تُحْفَةٌ جَميلةٌ)، ونُشِرَ (بصورةٍ جميلةٍ)، وهو (قُنْيَةٌ نافعةٌ)، وقد اكتفى فيه مؤلّفهُ (باللُّبابِ)، ورجعَ إلى (مظَانَّ كثيرة)، و(بالَغَ في التّنقيح)، وذكرَ عددًا من مزاياه، وألَمَحَ إلماحَةَ الذّكيِّ للذَّكيّ إلى مَأخَذٍ لَهُ عليه، وهو أنّه لَمْ يُراعِ (النِّسبَةَ في الرِّجالِ والأقطار).

وكثيرُونَ هم مَن أثْنَوْا على الكتاب بعدَ ذلك، ومنهم علّامَةُ الجزيرةِ العربيّة الشّيخُ حَمَدُ الجاسر -رحمهُ اللهُ- وقد كان يَرى نفسَهُ على

مكانَتِهِ في مقامِ الطّالبِ أمامَ الزّركليّ، فقال: «كتابُ (الأعلام) لأستاذِنا أبي الغيثِ خَيْرِ الدّين الزّركليِّ، أَوْفَى كتابٍ حديثٍ في التّراجمِ فيما أعلمُ، فهو عُصارةُ فكرٍ بَحّاثةٍ جليلٍ، قلَّ أن يُضاهيَهُ أحدٌ في سَعةِ اطّلاعهِ على المؤلَّفاتِ قديمِها وحديثِها، وهو خلاصةُ مِئاتٍ من الكتبِ والمطبوعاتِ أُلِّفَتْ في التّراجم، بحيثُ يصحُّ القولُ بأنَّ (الأعلامَ) من مفاخرِ عصرنا الثقافيِّ» [مجلّة العَرَبِ ٥ : ٩٣ - ٩٤].

٧ - الاستدراكات عليه والتّتمّات:

الاستدراك على العلماء أمرٌ مألوفٌ في تاريخ التّأليف،وصناعة الذُّيول والتّتمّات (البدءُ من حيثُ انتهى العالِمُ) أمرٌ شائعٌ أيضًا، وكان الزّركليُّ نَفْسُه مِمَّنِ استدراك على نفسِه مِرارًا، منذُ أن ظهرت طبعة الأعلام الأولى، وقد سبقتِ الإشارة إلى ذلك، وأفادَ مِمّا زوّده به أصدقاؤه ومعارِفُه وما كُتِبَ مِنْ نَقْدٍ دعا الزّركليُّ الباحثينَ إليه في مقدّمة طبعته الأولى [انظر: الأعلام ١ : ٢١ - ٢٢]، وشَكَرَ في طبعتِه الثّانية كلَّ من فعل ذلكَ [انظر الأعلام ١ : ١٧ - ١٨]؛ وشارَكَ في ذلكَ عددٌ من العلماء والباحثينَ بعدَ صدور الطّبعة الرّابعة، حتّى بلغَ عددُ المستدرَكات والتّتمّاتِ التي صنعوها تِسْعَةً فيما وجدتُه، ولعلّها أكثر.

ومِمَّن شارك في النّقد والاستدراكِ ووَضْعِ التّتِمّاتِ: صديقُ الزّركليّ أحمد عبيد، والشّيخ محمّد أحمد دهمان، والمستشرق كرنكو، والدّكتور نزار أباظة ومحمّد رياض المالح، وأحمد العلاونة، ومحمّد بن عبد الله الرّشيد، وعبد العزيز الرّفاعيّ، وغيرُهم.

وما هذه الاستدراكات والتّتِمّاتُ والذُّيول إلّا لِشُعور أصحابِها بِقيمةِ الكتابِ وكبيرِ أَثَرِهِ في أعمالِ أصحابِ البحوثِ والدّراسات، وما هيَ إلَّا مِن بَرَكَةِ إخلاصِ صاحِبه الّذي حَّبَبَه وكِتابَهُ إلى المهتمّين بالتّراجِمِ وكُتُبِها.

٨ - ما أعان الزركليّ على إنجازِ كتابه:

إنّ إنجازَ كتابٍ عظيمٍ كـ(الأعلام) يجمَعُ ما جَمَعَه لا يكونُ إلّا بأنْ يُسْعِفَ المؤلِّفَ أمورٌ لا بُدَّ منها أو مِن أكثرِها.

وقد أشارَ الزّركليُّ نفسُهُ إلى بعضِها إشارةً لها دَلالَتُها، إذ قالَ في مَعْرِضِ حديثِهِ عن خطوطِ العُلَماءِ وغيرِهم: «عرضَ لي وأنا أتلقَّطُ صُوَرَ الأقرَبِينَ عهدًا، مِن هنا وهناك، أنّ لبعضِ مَن تقدَّمَ بهم الزَّمنُ ما قد يَحُلُّ مَحَلَّ الصُّورة، مِن توقيعٍ أو إِجازةٍ أو تَمَلُّكٍ، وبدأتُ أنظرُ **فيما بين يدَيَّ** مِن أسانيدَ وأَثْباتٍ ورِقاعٍ؛ ثمّ اندفَعْتُ أنقِّبُ عن خطوطِ المصنِّفين في أوائلِ كتبِهم وأواخرِها، وبين سطورِ ما نُسِخَ على عهدِهم منها، ونَشِطَ **البَرَرَةُ مِن إخواني**، فأمدُّوني بالتُّحَف، وتهيَّأت لي **رِحْلات** فاقتنَصْتُ خطوطًا لم أكن أحلُمُ بها، **وتفتَّحَتْ أمامي أبوابُ المتاحِفِ والمكتباتِ ومُخْتَلِفُ الخزائنِ السُّلْطانيّة والبيوتات العريقة** في القِدَم، فإذْ بي والأُفُقُ أمامي لا نهايةَ له، كخائِضِ البحرِ أمامَ الجَزْرِ داهَمَهُ المَدّ» [الأعلام ١ : ١٦].

وأشارَ إلى بعضِها المهتمّون بـ(الأعلام) وصاحِبه، فقال أحمد العلاونة: «أُتِيحَ للزّركليّ **التَنقُّلُ** بين الأقطار والعواصم والمدن والمكتبات والمجالس، ونال مِنَ **المَناصِبِ** ما عرَّفه بالرّجال مِن كلِّ

صنفٍ ولون، **سَمِعَ** الأقاصيصَ **ورَأَى** الوقائع، وكانَ مِنَ **اليَسارِ والثَّراءِ** بحيثُ لا يقفُ حائلٌ دون حصولِه على مصدرٍ ومَرْجِع» [خير الدين الزركلي ـ المؤرخ الأديب الشاعر ـ صاحب كتاب الأعلام: ١٠٠].

وذكَرَ الدّكتور نزار أباظة ما تمتّع به الزّركليّ، من **همَّةٍ وطول بحثٍ، وعملٍ في السّلك الدّبلوماسيّ**، وحضور **مؤتمراتٍ دَوْليّة كثيرة** بلدان العالَمِ وحواضِره في دمشق وبيروت وعمّان والقدس وحيفا ومكّة والرِّباط والقاهرة وحلب واستانبول وتونس والمغرب، وإنكترة وفرنسة وإيطالية واليونان والولايات المتحدة، وقفَ فيها على كثيرٍ ممّا احتوته مكتباتها من المخطوطات النّفيسة والكتب النّادرة، **واتّصالٍ بعدد كبير من أهل العلم والباحثين** في الشّرق والغرب، **ففُتِحَ له كلُّ مُسْتَغْلِقٍ** يعزُّ فَتْحُه على غَيْرِه، **وسَعَةِ اطّلاعِهِ على الجرائد والـمَجَلّات، وامتلاكِه مكتبةً واسعة** من أكبر المكتبات الخاصّة في العالم [انظر: موقع دار الفكر على الشّابكة: http://www.fikr.com/article ، وانظر مقالًا على الشّابكة بعنوان (مكتبة الزّركلي) في: http://www.alukah.net/culture].

وفي الإمكان الإشارة إلى أمورٍ أُخرى، منها:

- البَدْءُ بالعملِ على رَغْمِ مصاعِبِ الحياةِ وهمومِها: من حُكْمٍ بالإعدام، وغُرْبَةٍ عن وَطَنِه (سورية) ومدينتِه (دمشق)، وقد كانَ رُوحُهُ متعلّقًا بهما إلى آخِرِ حياتِه.
- حُبُّ العمل والتّعلُّق به، وإعادة النّظر فيما أَنجزَ مرَّةً بعدَ مَرَّة؛ إذ هو عملٌ علميٌّ أرادَهُ الزركليّ كتابًا يُلَبِّي حاجةَ أُمَّتِهِ وأبناءِ عصرِنا، فجعلَهُ (مَشْروعَ حياتِه) الّتي وهبَها أُمّتَه، حتَّى أنفق في جمعه وتعديله والاستدراك عليه ومتابعة الجديد ما يُرْبِي على ستين سنة،

ومات وتحت وسادته في المَشْفَى قُصاصات من الورق كتب فيها ما وقع عليه من جديد ينبغي أن يزاد على الكتاب [انظر موقع دار الفكر: http://www.fikr.com/article]

- تَلَقِّي نقدِ العلماء بصدرٍ رحبٍ وامتنانٍ، والإفادة ممّا يُبْدُونَهُ للارتقاءِ بالعمل، فقد قال في مقدّمة الطّبعة الأولى تحتَ عنوان: (**الدعوة إلى نقده**) بعدما ذكَرَ عُذْرَهُ فيما قد يكون وقع في الكتاب من خطأ أو وهم: «أمَا وقد مضَيْتُ في ما شَرَعْتُ فيه، فما عليَّ **لتكونَ الخدمةُ خالصةً للعلم**، إلّا أنْ أَلْتَمِسَ ممَّنْ حَذِقُوا التّاريخ، ومازُوا لُبابَهُ مِن قشورِه، وكانَ لهم مِن الغَيْرَةِ عليه ما يُحَفِّزُهم إلى الأخذِ بيَدِه، **أن يتناولوا الكتابَ، مُنْعِمِينَ، مُفْضِلينَ، بنقدِ** خَطَئِهِ وعَدْلِ عِوَجِه، وبَيانِ ما يبدو لهم مِن مَواطِنِ ضَعْفِه؛ وقديمًا قال **إبراهيم الصُّوليُّ**: (المُتَصَفِّحُ للكتابِ أبصرُ بمَواقِعِ الخَلَلِ فيه مِن مُنْشِئِه)»، فلمّا فعَلُوا لم تأخذْهُ العِزَّةُ والأَنَفَة، بل شكرَهم في الطّبعةِ الثّانية شكرًا طويلًا لطِيفًا رقيقًا، فِعْلَ العالِمِ الّذي يَعرِفُ فَضلَ أهلِ الفَضل والمعروف.
- تقديرُ العلماء وتشجيعُهم ومساعدتهم، وقد سبق ما كتبه محمّد كرد عليّ وغيرُه، وكثرةُ مَن شكرَهم الزّركليّ وعدَّدَ أسماءَهم واحدًا واحدًا.
- وإذ سبقت الإشارةُ إلى ما أُوتِيَهُ مِن سَعَةٍ مِن المالِ أعانته على إنجازِ عملِه، لا بُدَّ مِن الإشارةِ إلى أنّ يَدَ خيرِ الدّينِ كانت مبسوطَةً بالعَطاءِ لِما فيهِ رِفعةُ وطنِه وتقدُّمِه، فقد جاءَ في تقرير (أعمال المجمع العلميّ العربيّ في سنة ١٩٢٤م = ١٣٤٢ – ١٣٤٣ هـ) الّذي رفعه محمّد كُرد عليّ رئيس المجمع: «نَدَبَ المَجْمَعُ مُديرَ دارِ الكُتُبِ ...

أَن يَذهَبَ إلى مِصْرَ، فَحَمَلَ إليهِ مِنها مجموعةً مِن الكُتُبِ النَّفيسَةِ بَلَغَتْ ألفًا وستَّ مِئةِ مُجَلَّدٍ في العلوم المؤَلَّفَةِ باللُّغَةِ العربيّةِ، وكُلُّها هَدِيَّةٌ مِنَ المؤَلِّفينَ والطَّابِعينَ والكُتُبِيِّينَ، ومنها ما أهدَتْهُ دارُ الكُتُبِ المِصريّة، وحَضَراتُ: أحمد تَيْمور باشا، و ... والسّيّد خَير الدّين الزّركليّ ..» [مجلة المجمع العلميّ العربيّ بدمشق، المجلّد: ٥، الجزء ١: ٥ - ٦]، وأوردَت مجلّةُ المجمع تحتَ عنوان (جَريدة المتبرِّعينَ والمُحْسِنينَ للمَجْمَعِ العلميّ):«ومنهم مَنْ تَبَرَّعَ بمالٍ، ومنهم بآثارٍ أو كُتُبٍ مخطوطةٍ أو مطبوعةٍ: ... السيّد خيرُ الدّين الزّركليّ – القاهرة» وذلك عامَ ١٩٢٨ م= ١٣٤٧ هـ [مجلّة المجمع العلميّ العربيّ بدمشق، المجلّد ٨، الجزء ١: ١٩ – ٢٠.].

- ومِمّا استظهرتُهُ استظهارًا: هُدوءُ حياتِه الاجتماعيّة واستقرارها.
- استثمارُ ما أنعم الله به عليه من طولِ العُمُرِ استثمارًا منظَّمًا واعيًا.
- استثمارُ مكانتِهِ السّياسيّةِ وعلاقاتِهِ بأصحابِ النُّفوذِ مِن سياسيّين وقَيّمين على المكتباتِ ومعاهدِ العلمِ والعلماء لإنجازِ مشروعٍ يخدِمُ أُمَّتَه عامَّةً لا مَصْلَحَتَهُ الخاصَّة.
- وأخيرًا -وهو أوَّلُ كُلِّ شيءٍ- الإخلاصُ في العمل وصِدْقُ النّيّةِ، فـ(إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات)، وقد تَبَدَّى ذلكَ في مواضِعَ عدَّةٍ من مقدّماته لِطَبَعاتِ الكتاب؛ ولا أتَرَدَّدُ في القَوْلِ: إنَّ مِنْ بَركاتِ هذا الإخلاصِ وصِدْقِ النّيَّةِ ما رُزِقَهُ (الأعلام) مِن شُيوعٍ وإقبالٍ عليه حتّى إنَّ خُلُوَّ أيِّ مكتبةٍ عامّةٍ أو خاصَّةٍ منه يُعَدُّ نقصًا بَيِّنَ العُوار، وما رُزِقَهُ (خَيْرُ الدِّين) مِن طِيبِ الثَّناءِ حَيًّا يسْعى على وجْهِ الأرضِ وحَيَّ الذِّكْرِ تحْتَ التُّراب، رحمه اللهُ وأجْزَلَ لهُ الثَّواب.

الشعر الوطني عند الزركلي

دراسة موضوعية وفنية

د. حسن الأحمد

أنا في هواكِ كما يَشاءُ هواكِ لي   كَلِفٌ بحبكِ يا دمشقُ ودودُ

الزركلي /١ /

خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، وُلِد في بيروت سنة ١٨٩٣م من أبوين دمشقيين، ونشأ وتعلم بدمشق ،وتطوّع للتدريس في المدرسة الهاشمية بدمشق

أصدر مجلة«الأصمعي» فعطّلها العثمانيون بسبب صورة رمزية كُتِبَ تحتها «الخليفة العربي المأمون».

انتقل إلى بيروت تلميذاً في مدرسة اللاييك العلمانية الفرنسية ،ثم أستاذاً للتاريخ والأدب العربي فيها، وأصدر بعد الحرب العالمية الأولى جريدة يومية بدمشق سماها «لسان العرب»،ثم جريدة «المفيد» اليومية، وهيأ للطبع مجموعة من شعره سماها«عبث الشباب»،فاحترقت مطبعته وأكلت النار أصول مجموعته الشعرية الأولى . غادر دمشق يوم دخلها الفرنسيون محتلين عام ١٩٢٠ ، فحكموا عليه بالإعدام غيابياً.

استقر بعدها بمكة ، وشارك في إنشاء حكومة الأردن الأولى .غادر بعدها إلى القاهرة وأنشأ فيها (المطبعة العربية) ، فطبع فيها ديوانه الأول ، وكتاب (ما رأيت ما سمعت) و (عامان في عمان) و(الأعلام)، الطبعة الأولى في ثلاث مجلدات.

وعندما نشبت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ حكم عليه ثانية بالإعدام لما أبدى من نشاط وطني في ذلك الحين .

غادر إلى القدس عام ١٩٣٠ وأصدر جريدة الحياة اليومية التي عطلتها لاحقًا الحكومة الانكليزية .

بين عامي ١٩٣٤ / ١٩٦٥ عمل في مناصب عدة للمملكة العربية السعودية آخرها كان سفيرًا للمملكة في المغرب .

توفي في القاهرة عام ١٩٧٦ .

وكان من أعضاء المجمع العلمي بدمشق منذ عام ١٩٣٠ ، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر سنة ١٩٤٦ ، ومن أعضاء المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٠ له آثار شعرية عدة هي :

- عبث الشباب ، وهي مجموعته الشعرية الأولى التي احترقت عام ١٩١٨ .
- الجزء الأول من ديوانه ، طبع في القاهرة عام ١٩٢٥ .
- ديوان الزركلي الأعمال الشعرية الكاملة ، وقد طُبع بعد وفاته بثلاثة أعوام .
- قصة شعرية بعنوان« مجدولين والشاعر»(١).

---

(١) انظر : - مقدمة ديوان الزركلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠ ، ص٢ ، ١١.
- ترجمته عن نفسه في الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٩٠ ، ص٢٦٧ - ٢٦٩

الشعر الوطني عند الزركلي

/ دراسة موضوعية /

الشعر الوطني هو الشعر الذي محوره الوطن ، بآماله وآلامه وأناسه ، وأمجاده وحاضره وماضيه ومستقبله ، هذا الشعر – وإن بدا محوراً في إطارٍ جغرافي ووجداني – له امتداد إنساني ، ينتقل فيه الذاتي إلى الموضوعي ، والجزئي إلى الكلي ، برؤيا شعرية تجد في التجربة الإنسانية نقاطاً مشتركة .

يُعد الشعر الوطني علامة واضحة في تطور حركة الشعر العربي الحديث – اذ التحم الشاعر بقضايا وطنه ، وشارك فيها مشاركة فاعلة ملتزمة – وناضل من أجلها في السلوك و الكلمة والموقف.

والزركلي من الأصوات الشعرية البارزة في مسيرة الشعر القومي والوطني ، وكان في حياته وشعره الشاعر العاشق لوطنه ، المتألم لمصابه، المناضل في سبيل حديثه وكرامته واستقلاله ، فضح ممارسات العثمانيين، وناضل في مواجهة الحركات الاستعمارية ، وقاوم مع قضيته فلسطين منذ بداياتها ، بوصفه الرمز والمثال الذي يُحتذى ، ووقف موقفاً حازماً إزاء الحرب الأهلية في لبنان ، وغنّى للجزائر .... ممتلكاً في ذلك كله جرأة قلّ نظيرها ، ورؤيا شعرية وسياسية ووطنية تجسّد بحق فكرة الالتزام في الشعر .

تفتح الوعي الوطني عند الزركلي منذ شبابه ، واستطاع أن يقيم عالمه الشعري على أساس ذلك ، متخذاً من الوطن مرتكزاً تجتمع حوله الموضوعات الأخرى ، فسكن الوطن، شعراً وهويةً ومكاناً، عقله وروحه، ولم يَجِد عن ذكره في موضوع شعري .

إن الـذين يدرسـون الـزركلي – كـما تقـول د. نجـاح العطـار – «سـيكونون جـديرين بـأن يظهـروا حقيقـة ، جـديرين بـأن يعيـدوا إلينـا صورته التي اختفت في ركام النسيان أعواماً وعقوداً ، كما يختفـي تمثـال إغريقي في حضن الأرض»(١).

إن الزركلي جعل لسورية صوتها الشعري الخاص ، بعد أن كانـت تعتمد في أحداثها شعر حـافظ وشـوقي والرصـافي والزهـاوي وبـشارة الخوري ...

وكان نداً لعبقريات شعرية في النصف الأول من القرن العشرين ، منها :شفيق جبري وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة وخليل مروم بـك ... فكان بحق«شـاعر الـشام» وهـو لقـب لم يطلـق إلا لأربعـة شـعراء هـم شـفيق جـبري، ومحمـد البـزم ، وخليـل مـردم بـك ، والـزركلي ، ورائـد الكلاسيكية الجديدة ، الذي أعطى للشعر هويته الشامية(٢).

الشعر الوطني في مرحلة الاحتلال العثماني :

عاصر الشاعر مرحلة الاحتلال العثماني بما فيها من جمود حضاري وتدهور اقتصاديّ واجتماعيّ ، وكبت للحريات وإعدامات للمفكـرين والمثقفين النهضويين ، وكان رائدًا من رواد النضال الأوائل ، وقد عمل لأجل استقلال العرب من نير السيطرة العثمانية ، يوم كانت الجمعيـات

(١) علـم الأعـلام خـير الـدين الـزركلي ، د. نجـاح العطـار ، وزارة الثقافـة ، دمـشق ١٩٧٧، ص١٤ .

(٢) من الديوان السوري ، د. اسماعيل مروة ، اتحاد الكتاب العـرب ، دمـشق، ٢٠١٦، ص٩٢ .

العربية تعمل سراً ، ففي الخامسة والعشرين من عمره ، يقول في قصيدة جريئة ، تنمّ عن وعيّ عميق بالأحداث[١].

عَتــا أحفــادُ جنكيــزٍ فــاتُوا　　　سـلائلَ يعـربٍ سـوقَ العبيـدِ
فكم قتلوا مـن الأخيـار صـبراً　　　وكم سـاقُوا المهانـةَ مـن عميـدِ
وكم حملوا عـلى الأعـوادِ ظلـماً　　　وكـم سَـقَوا المنيـةَ مـن شـهيدِ

يُضاف إلى ذلك أن قصائد هذه المرحلة غالباً ما ربطت بين تصوير الواقع وتعرية ممارسات العثمانيين والدعوة إلى استنهاض الهمم والدفاع عن العروبة التي حاول العثمانيون طمسها بممارساتهم . يقول[٢]:

واشحذ شباك فـإن العُـربَ قـد نهضوا
وإنّ حــين عــلاءَ العــربِ قــد حانــا
وكـــلُّ ذي غنـــوةٍ لا بـــدَّ نابـــذُها
وهــل يظــلُ أســير النــوم وســنانا

وقد كشف في هذه المرحلة كثيراً من صور الرياء والحقد والخيانة التي أخفاها العثمانيون خلف«الخلافة الاسلامية العثمانية» ، كما أحسّ - برؤيته الشعرية والسياسية العميقة - مؤامرة تقسيم البلاد ، ففضح خطة الأعداء ، وأطلق في آخر قصيدة له قُبيل سقوط العثمانيين صرخته الشعرية المدوّية محذراً من القادم ، يقول في عام ١٩١٩[٣].

(١) ديوان الزركلي ، المطبعة العربية بمصر ،١٩٢٥ ، ص٨٣ .
(٢) الديوان: ٢٦.
(٣) الديوان: ١٢٦.

فيمَ الونى وديارُ الشامِ تُقتسمُ		أين العهودُ التي لم تُرعَ والذممُ
يا نابضاً فيه عِرقٌ من بني مضرٍ		أسرِج جيادَكَ ولتطلَق لها اللُّجَمُ

مرحلة الاستعمار الفرنسي:

مع دخول الفرنسيين دمشق عام ١٩٢٠ ، عاش الزركلي مرارة المرحلة الجديدة ، التي لم تقل وطأة عن الاحتلال العثماني ، وكان أول ما قاله قصيدة «الفاجعة» وفيها صوّر الزركلي سقوط ميسلون بشعر رائع لا نكاد نجد له مثيلا في شعر الشام(١)، فيقول وهو في مصر آنذاك(٢):

اللهَ للحدثانِ كيفَ تكيدُ		بردى يغيضُ وقاسيونُ يميدُ
تَفِدُ الخطوبُ على الشعوبِ مغيرةً		لا الزهرُ يدفعها ولا التنديدُ
ما في دمشقَ لناهضٍ من عزةٍ		وبها سُرادقِ غاضبٍ محدود
خدعوكِ يا أمَ الحضارةِ فارتمت		تجني عليكِ فيالقٌ وجنودُ
لهفي على وطنٍ يجوسُ خلالهُ		شُذاذ آفاقٍ شراذِمُ سودُ
أَبرابرُ السنغالِ تسلُبُ أمتي		وطني ولا يتصدعُ الجُلمودُ

وبسبب هذا الموقف السريع الواضح ، حكمت عليه السلطات الفرنسية بالإعدام غيابياً ، وصودرت أملاكه في دمشق ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الغربة مكوناً مهماً من مكونات شعره الوطني(٣):

---

(١) الشعراء الاعلام في سورية ، سامي الدهان ، دار الأنوار ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٨ ص ١٥٤

(٢) الديوان :١١٦ .

(٣) الديوان : ١٢١ .

العـينُ بعـد فراقهـا الوطنـا لا سـاكناً ألفـت ولا سـكنا
والقلـبُ لـولا أنّـةٌ صـعِدت أنكرتـه و شـككتُ فيـه أنـا
يـا موطنـاً عبـثَ الزمـانُ بـهِ من ذا الذي أغـرى بـكَ الزمنا
لـو مثّلـوا لي مـوطني وثنـاً لهممـتُ أعبـدُ ذلـك الوثنـا

هكذا امتزج الوطن الشاعر بمشاعر الحنين ،والحسرة ، فجاء معظم شعره - كذلك – مكوناً من هذه الثنائية التي يؤكدها في شعره، وفي القصيدة الواحدة(١):

لـولا الحنـينُ لمـا بكيـتُ أحبـةً كانت تضمُهُمُ دمشقُ وتجمعُ
لـولا الحنـين لمـا بكيـتُ لياليـاً كانـت دمشقُ بها تجودُ وتمنع
لولا الحنينُ إلى دمشقَ وأهلِهـا جفّت بمقلتي الشؤونُ الهُمَّـعُ
لـولا الحنـينُ لمـا بكيـتُ بِجِلّـقٍ (قمراً يغيبُ وألف بدر يطلعُ)

لقد ارتقى شعر الزركلي بالحدث إلى نص شعري مفرداته الواقع ، ورؤيا المبدع ، و الوجدانية ، بعيداً عن المبالغة و التهويل والندب ، ذا الكلام ينطبق على معظم شعر الزركلي الذي سجّل فيه عدداً من الأحداث في ظل الاستعمار الفرنسي ، منها توثيقه حادثة ضرب دمشق بالقنابل شعرياً ، وهو في القاهرة (٢):

الأهـلُ أهـلي و الـديارُ ديـاري وشعارُ وادي النيربينِ شعاري

---

(١) الديوان: ٢١٠ .
(٢) الديوان: ٢١٠ .

مـا كـانَ مـن ألمٍ بِجلّـقَ نـازلٍ　　　واري الزنـادِ فَزَنـدُهُ بـه واري

ومعي لما منيتُ به جارٍ هنا　　　ودمي هناكَ على ثراها جاري

والقصيدة سجلّ فني - تاريخي - يميل إلى الواقع ويُعيد تشكيله في المستويات التعبيرية كافةً[1]:

الطفلُ في يدِ أمهِ غرضُ الأذى　　　يُرمى وليس بخائضٍ لغمارِ

والشيخُ متّكئاً على عكّازهِ　　　يُرمى وما للشيخِ من أوزارِ

لا يعلمون أفي سوادِ دُجنّةٍ　　　هم سُهّدٌ أم في بياضِ نهارِ

الوابلُ المدرارُ من حُمَمٍ　　　متواصلٌ كالوابلِ المدرارِ

ويسجَّل للزركلي – هنا – أنه كان من أوائل الشعراء الذين حذّروا و رفضوا تقسيم وطنه سورية إلى دويلات على أسس مناطقية ودينية و مذهبية ...

فالوطن يتعالى على هذه الانتماءات الضيّقة، والهوية الوطنية واحدة ، ونسيج متكامل لا يتجزأ[2]:

أَدولةٌ في دمشقَ ذاتُ أنظمةٍ　　　ودولةٌ في قويقٍ أمرها جللُ

ودولةٌ في ربى لبنان قائمةٌ　　　بينَ الكهوفِ يقيها العاديَ الجبلُ

ودولةٌ في فلسطينَ وجارتِها　　　عمّانَ حيث ضياعُ الرشدِ والخبلُ

ما ضاق بي بلدٌ مما نزلتُ بهِ　　　وإنما صَغُرَت في عينيَ الدولُ

---

(١) الديوان: ٢١٠ .

(٢) الديوان: ١٣٧ .

لهذا كله كان لا بدّ من النزول إلى ساحات القتال ، والابتعاد عن الخطابات والأقوال، وغسل العار بالسيف(١):

انهضوا يا نيام   يا رجالَ الشآم

ليس إلاّ الحسام   جالياً للعار

شمّروا الذراع ، و اكسروا اليراع ، حومةُ القِراع ، قِبلةُ الكرّار.

مرحلة الاستقلال ، وقيام الكيان الصهيوني :

شهد شعر الزركلي خلال هذه المرحلة فتوراً نسبياً، وقد يكون ذلك راجعاً إلى انشغال الزركلي بتولّي المناصب ، وخفتت المشاعر المتدفقة التي كنّا نلحظها في مراحل سابقة ، لا بل نرى في هذه المرحلة في شعره أفكاراً غريبةً عمّا ألفناه في أشعاره السابقة(٢):

لا خير في وطنٍ ينالُكَ ضيمُهُ   إنّ المَضيمَ بأهلِهِ لَمُضيّعُ

انزح وحسبك بالحنين مواسياً   ترتاح فيه إلى السكونِ الأضلعُ

وقد تصل هذه الغرابة حدّ العتاب وهو ما لم يكن مألوفا في شعر الزركلي قبل ذلك(٣):

أطالت عليَّ الشامُ حبل صدودها

وفي الشام ، من أهوى وفي الشام أحيا

---

(١) الديوان: ١١٥ .

(٢) الديوان، ط مصر ١٩٢٥، ص: ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق.

فوق ذلك كله غاب الزركلي شعرياً عن ذمة الوطن بجلاء آخر جندي فرنسي عن أراضيها ، فلم ينظم شيئاً في هذه المناسبة التي تغنّى بها شعراء تلك المرحلة ، مع أنه نظم الكثير في الوصف والغزل بين عامي ١٩٤٦ -١٩٤٧.

أيضاً لم يتطرق إلى الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ وهو الذي كان يدعو في شعره كله إلى الوحدة والتضامن ، وتوحيد الكلمة والنضال .

واقتصر ذكر الوطن مع بعض المواقف الذاتية في أثناء قصائد ذات منحى آخر يقول(١):

ماذا جنيتُ على الأيامِ دائبةً ... كصائدِ القرش تُرخي وتجذبُني
وتبتليني بمغرورين هَمُّهُمُ ... ما ليس همّي ومرآهم يعذبني

أو على انتقاد بعض السياسيين في تلك المرحلة(٢):

أيها الحاملون ألويةَ القو ... مِ، المسمَّون بيننا زعماءَ
اُخطبوا نستمع إليكم وزيدوا ... نا بيانا نزودكم إصغاءَ
شهدَ الله أنكم في دياجي ... رٍ، وأنّا بكم فقدنا الضياءَ

ويبدو أن الشاعر في تلك المرحلة كان يعيش حالة من عدم الاستقرار في المكان ، والانفعال والرويا ، يُفهم ذلك من مقاربة قوله(٣):

---

(١) الديوان : ٢٢.
(٢) الديوان : ٤٠.
(٣) الديوان : ١٩٦.

مـالي وللأيـامِ تعبـثُ بي فمِـن تيـــارِ مُرتحـــلٍ إلى تيـــارِ
متـــنقلاً بـــين ارتيـــاد معـــالمٍ ومجاهـــلٍ كالكوكـب الـسيّار
ألقي عصا التسيارِ في مستوطَنٍ وتثورُ تنهضُ بي عصا التسيار

وقد يكون الأمر موقفاً سياسياً مما كان يجري ، ومن الطريقة التي كانت تدار بها البلاد[1]:

ساءَ التفـردُ في التـدبيرِ مُنتهجـاً والرأي للفردِ غيرُ الرأي لـلأَلِ
لا خيرَ في الحكمِ لا الشورى تساندُهُ ولا حـــصانةُ أقـــوالٍ وأفعـــالِ

لذلك اتسم بعض شعره في هذه المرحلة بنزعة انتقادية ، وفي هـذا السياق انتقل الشاعر من الوطن المأمول إلى أصحاب السلطة وسلبياتهم، وكأننا أمام حالة من الإحباط مردّها إلى انقلاب هؤلاء عن آمال التحرر والخلاص من المستعمر[2]:

قـالوا حمـاةٌ فقلـتُ كـانوا ورؤســـاءٌ فقلـــتُ هـــانوا
وأمـــراءٌ فقلـــتُ ذَلـــوا لا النـاسُ نـاسٌ ولا الزمـانُ

لكن هذه الصورة القاتمة لشعر الزركلي في هذه المرحلة لم تكن موسومة بذلك دائماً ، إذ إن بعض الأحداث كانت كفيلة بقلب هذه الصورة ، وأهمها حرب تشرين التحريرية ، التي أعادت للشعر الوطني عند الزركلي ألقه ومعناه بعد سلسلة من الهزائم والخيبات .....لهذا لم يكن مستغرباً أن يخصّ هذا الانتصار بقصيدة من روائعه ، عنونها بـ «المِهرجان» وجعل النصر مهرجاناً للعرب كلهم . يقول[3]:

---

(١) الديوان : ٢٤٨.
(٢) الديوان : ٣١٢.
(٣) الديوان : ٣٠٧.

المِهرجـــانُ المِهرجـــانُ ضَـجّت لـه إنـسٌ وجـانُ
عـارٌ محـاهُ أبـاةُ هـونٍ ما رضـوهُ ولا استكانوا
يـا عـينُ أبكـاكِ الزمـانُ وعــادَ يعتــذرُ الزمــانُ

ويقود المتتبع الدقيق في أفكـار القـصيدة إلى أن هـذا الحدث أعـاد الثقة للأمة جمعاء ، وأن هذه الواقعة التاريخية ليست مجرد حدث عرض عـابر في تـاريخ الأمـة ، إنـما هـي مفـصل مـن مفاصـل التـاريخ العـربي الحديث ،وعليه سيكون هناك مسار جديد في هذا التاريخ(١):

أيــن الجبــابرةُ العُتــاةُ وأيــن ذاكَ العنفــوانُ
وقفت لوالبُهم وغابَـت شمسُهم وعلا الـدخانُ

أما القضية الفلسطينية فكانت حاضرة في شعر الزركلي الـوطني ، في مراحله كافة ، وكان من أهـم الـشعراء الـذين واكبـوا تطـورات هـذه القضية ، فحذّر من محاولات إنشاء كيان صهيوني في فلسطين ، وعـرّى ممارسات السماسرة والتجار ، وأحس بالفاجعة قبل وقوعها .

يقول في عام ١٩٢٩ (٢):

أمست فلسطينٌ مناخاً للـردى وترابُهـــا بـــدامائِها مجبـــولُ
في كـل رابيـةٍ جُـسومٌ مُزّقـت وبكـــلِ وادٍ أنّــــةٌ وعويـــلُ
أيبيـدُ قـومٌ كـي يحِـلّ محلّـهُ قـومٌ ويرعـى القاتـلَ المقتـولُ

(١) الديوان السابق، ٣٠٧.
(٢) الديوان: ٢٣٠.

ويقول عام ١٩٣٣ راصداً بيع فلسطين وكاشفاً بموضوعية جزئيات الصورة ، وإن كان فيها ما لا يسرّ(١) :

وأعجبُ ما ترى سمسارَ قوم … تذوبُ به الدساكرُ والضّياعُ
يبيعُ بلادَهُ وسواهُ راضٍ … يكرّمُهُ ويُكبرهُ رَعاعُ
هي الأوطانُ تُحمى أو تُفدّى … ولم أرَ قبلُ أوطاناً تُباعُ

ويُظهر الزركلي في هذا السياق ، انحيازاً كبيراً للإنساني في الأحداث الكبرى ، ويكشف جوهر النكسة في تشتت الإنسان الفلسطيني وضياعه وتشرده ، وإظهار الذات الإنسانية في سياقها المأساوي ، فالوطن إنسانٌ قبل أن يكون أرضاً ، وفي هذا الحدث الجلل ضحية. يقول في قصيدة«اللاجئ» ، وهي قصيدة طويلة تجسّد موقف الزركلي، ومنظوره السياسي والإنساني والوطني من هذا الحدث الأليم(٢):

خلّوا تراثَ العزِ لم يحفلوا … واستودعوا الأقدارَ ما خلّفوا
مُصبحهم همٌ وممساهمُ … غمٌ ومضحاهُم ضنىً مُدنفُ
يثرثرُ الساسةُ من حولهم … هذا يمنيّهم وذا يَلهفُ
مررتُ بالقومِ وقد خيّموا … والريحُ في أبياتهم تعصِفُ
جحافلٌ مُنبثّةٌ في الفلا … كأنها هياكلٌ تُرصَفُ
أخمدَ طولُ السَّغبِ أنفاسها … كالجمرِ في رمادِهِ يُغلفُ

---

(١) الديوان: ١٣٣ .
(٢) الديوان: ٣٦٧.

كما يمكن رصد موقف سياسي وطني في هذه المرحلة يتعلق من الأحداث التي جرت في لبنان إبان الحرب الأهلية ، وهو موقف منسجم إلى حدّ بعيد مع وطنية الزركلي والحق أن الزركلي في ذلك كان يحدس المآلات التي ستؤول إليها هذه الصراعات الأهلية ، يقول في «قناص» بسخرية مرة(١):

اضرب فهـذا أخوكـا ... واطعـن فـذاك أبوكـا
ألستَ قناص حيّ ... أقامَ فيهِ ذووكا
بنو عمومتك الأقـر ... بونَ بل هم بنوكا
سلّط عليهم رصاصاً ... واسحق منهم أهلوكا

وكان آخر ما كتبه قبل وفاته بثلاثة أيام ، وقبل أن يدخل في غيبوبة الموت ، ثلاثة أبيات وجدتها ابنته تحت وسادته، يقول فيها(٢):

متى تتبرجُ الدنيا ويشدو ... هزارَ ربيعها بعدَ النحيبِ
وتبتسمُ الأزاهرُ في رُباها ... معطرةَ الندى بشميمِ طيبِ
أما للكارثاتِ من الرزايا ... ختامٌ بين .... والصليبِ

كان همّ الشاعر أن ينعم الوطن كله بالأمان و الاستقرار والقوة، وأن يُبنى الإنسان العربي بناءً قوياً وطنياً وسلوكياً و هويةً، وهذا ما كان محور وظيفة شعر الزركلي في مراحله التاريخية كافةً.

---

(١) الديوان: ٣٦٧.
(٢) الديوان ٣٦٧ ، من المرجح ان تكون الكلمة المحذوفة«أحمد» لمناسبتها للموضوع والحدث والوزن .

الشعر الوطني وتقاطعاته عند الزركلي:

شعر الزركلي الوطني - كما يقول سامي الدهان -«في لفظه ومعناه يشبه بكاء الثاكل، وحزن المفجوع، وحنين الغريب، فلا تكلف ولا صنعة، وإنما حسرة تفلق القلب ، ويخرجها الشاعر في القوافي»[1]. لذلك تقاطع شعره مع جملةٍ من الموضوعات والمعاني و الأغراض الأخرى، فشعره الوطني في النهاية مركز يتقاطع فيه الفن والتاريخ والمكان والغربة والوجدان والحنين ... على نحو يصعب فيه مقاربة هذا الشعر خارج هذه التقاطعات.

الوطن / سورية : سورية هي موطن الشاعر الأول ، وهو شريان الوطن الكبير ، ومحور شعره الوطني كلّه[2] :

سوريةٌ نحن لها ... نحمي حماها أبدا
نبني لها صرح الحيا ... ةِ، فوقَ هاماتِ العدا
سرنا بها في حلكِ الـ ... ـليلِ بهيماً أسودا
تقنّعت نجومُهُ ... والذئبُ فيهِ استأسدا

حتى إذا الصبح بدا
وانقشعَ الإظلام
ولاحَت الأعلام
صحنا بها : هيّا

---

(١) الشعراء الأعلام في سورية ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .
(٢) الديوان: ٧٥.

الوطن / الأرض – النشأة – الذكريات – المثوى(1):

وطنـــي طــال بكــائي والأســـى ممــا عراكــا
أنـــا لا أعـــشق ممـــا عــشق النــاسُ ســواكا
فيــك محيــاي ومثــوى أعظمــي تحــت ثراكــا

الوطن / التاريخ المشرق(2):

وهـل أنـا إلا ابـنُ أمجـادِهِ أتيهُ وأفخرُ فيها احتوى
أدافـع بـالروحِ عـن مجـدهِ وأدفعُ عنه شرورَ العِدى

الوطن / الشهداء :

لا تقـوم الأوطـان إلا عـلى تـضحيات أبنائهـا ،وأعـلى درجـات التضحية، الشهادة، والزركلي غالباً ما ربط بين الوطن والشهيد ، فكـان رثاء الشهداء مرافقاً مراحله الشعرية كافةً ، رثى في عـام ١٩١٦ شـهداء شبان سورية ورموزها الوطنية والفكرية الذي أُعدموا عـلى يـد المحتـل العثماني(3):

نعــى نــادبُ العُــربِ شــبّانها فجـــدّدَ بـــالنعيّ أحزانهـــا
بكـــى كـــلُّ ذي عـــزَّةٍ تِربَـــهُ وهـــاجَ نـــزاراً و عـــدنانَهَا
نعت لغةُ العُربِ من أحكمـوا لـــسانَ قـــريشٍ وتبيانَهَـــا

---

(١) الديوان: ١٣٥.
(٢) الديوان: ٣٢٢.
(٣) الديوان: ٣٢٢.

وناحت على من بَنَوا عزّها وأعلوا بها أثّلوا شانها

كذلك رثى شهداء الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين، ومنهم أحمد مريود الذي قال فيه[1]:

أقبلوا يحملون أحمدَ وضّا حَ المحيّا مُضرَّجَ السّربالِ
إنّ في موتِ أحمدٍ لكِ بعثاً يا أمانيُّ لم تكن بخيالِ

ورثى كبار الوطنيين في سورية، بوصفهم رموزاً وطنية، وممثليّ أجيال تُحتذى سيرتهم ونضالهم، من هؤلاء فوزي الغزي الذي قال فيه[2]:

مشى الوطن المَبكيُّ مِشية مكبولِ على الهامِ من أبنائه أيُّ محمولِ
وما كان فوزي يوم هبَّ نُعاتُهُ فتى يومِهِ بل كان فوزي فتى جيلِ
حِجىً كوميضِ البرقِ ألقى شعاعَهُ ورأي كحدّ العَضبِ ليس بمغلولِ

خلاصة القول: كان الاتجاه الوطني في شعر الزركلي طاغيا على الاتجاهات الأخرى، وتماهى في شعره الوطني بالقومي، إذ عبّر عن رؤية عميقة بوحدة المصير والآمال، فناضل نضالاً وطنياً وقومياً، وكان له مواقف سياسية واضحة من الأحداث التي ألمت بالأمة، وامتاز شعره بالجرأة والصدق، بعيداً عن الترميز والتلميح « فبات البلبل الصداح الذي يعزف للوطن والأمة، ويغني للحرية، ويضرم الحقد في النفوس من أجل الثورة»[3]، كاشفاً في ذلك كله عن رؤية شعرية

(١) الديوان: ١٨٧.
(٢) الديوان: ٢٥٩ – ٢٦٠.
(٣) خير الدين الزركلي شاعر الوطن، أكرم قبنس، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١١، ص ٩.

مبكـرة ، ومـدركاً أهميـة الكلمـة وقدرتـه في إحـداث التغـير المنـشود ، ومؤمنا أن النضال فكر وسلوك.

الخصائص الفنية في الشعر الوطني عند الزركلي :

لا يتحصّل الفن في الـشعر ، وفي أي مـادة أدبيـة ، إلا في بنيـة كليـة ذات شبكة واسعة من العلاقات[1]، على مستوى اللغة من حيث التركيز والتكثيف والانحراف والتوازي ، وما ينشأ عن ذلـك مـن قـيم إيقاعيـة مثريـة ، وعـلى مـستوى الـصورة والمشهدية والمجـاز عمومـاً ، وعـلى مـستوى التفاعـل مـع نـصوص شـعرية سـابقة ، وثقافـة مكتـسبة يـتم توظيفها في نـسيج الـنص ، كـذلك استدعاء الـسابق لإعـادة إنتاجـه بـما يتوافق مع الأحداث والأوضاع المعاصرة للشاعر.

اللغة والمعجم الشعري :

لغـة الـشاعر تعبـير عـن رؤيـا ، وهـي نتيجـة لتفاعـل شـبكة مـن العناصر (الشعرية ، الثقافة ، الهموم ، الوجدان ، الموقف ....) .

نصّياً ، أساس الشعرية في الـشعر هـو البنيـة اللغويـة ، إذ«تتحقـق الشعرية في نـص مـا حـين يثـير الانتبـاه إلى لغتـه وصـياغته وحـين يقـوم بسلـسلة مـن الخروقـات والإنزياحـات إن عـلى المـستوى المعجمـي، أو الدلالي، أو الإيقاعي، أو الرؤيوي»[2].

---

(١) الشعرية، تزفتان تووروف، ت. رجاء بن سلامة – شكري المبخوت، دار توبقـال، الدار البيضاء ط٢، ١٩٩٠، ص ٢٣.

(٢) ظواهر نـصية ، نجيـب العـوفي ، عيـون المقـالات ، الـدار البيـضاء ، ط٢ ، ١٩٩٢، ص ٣٦.

إن دراسة الشعر الوطني تدفعنا منذ القراءة الأولى إلى ملاحظة مهمة على مستوى المعجم الشعري ،إذ ثمة ألفاظ محورية تميز هذا الشعر ، فإنجاز الشاعر – في هذا المستوى – هو صبغ النصوص بصبغة ذاتية ، ليصل في النهاية إلى خصوصية الأسلوب الذي يعني« الإبراز الذي يفرض بعض العناصر من السلسلة اللفظية على انتباه القارئ»[١].

تتأرجح اللفظة عموماً في شعر الزركلي بين القديم والحديث ، وهذا ناجمٌ عن اتجاه الشاعر الأسلوبي (الكلاسيكية الجديدة)، وعموماً الألفاظ القديمة مألوفة وبعيدة عن الوحشي والغريب ، وهي مما يتطلبه السياق غالباً .

من حيث الموضوع سيطرت ألفاظ بعينها سيطرة كبيرة مثل:

الشام، العين ، والوطن ، والعُرب ، والحنين ، والشعب ، والأهل ..... وعلى الشاكلة ذاتها ثمة أفعال مركزية في شعره مثل: أذكرتني ، وكنت ، وانظر ، وألف ....

إن ما يمنح المعجم خصوصيته ليس اللفظ وحده ، إنما تنسيق الألفاظ، وتوظيفها في سياق ما ، وهو ما سيُبين لاحقاً.

على مستوى تنظيم البنية النوعية في شعره الوطني ، أكثر ما يعتمده بنية التوازي ، وهي بنية تقوم إيجاد تناسبات في مستويات متعددة ، صوتية ومعجمية وتركيبية ، وهذا ما يكسب النص الشعري انسجاماً واضحاً ، كما في قوله[٢] :

---

(١) النقد الأدبي والعلوم الإنسانية ، جان لوي كابانس ، ترجمة فهد عكام ، دار الفكر، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٦، ص ٦٧.

(٢) قضايا الشعرية ، رومان ياكبسون ، ترجمة محمد الولي ، مبارك حنون ، دار توبقال ، الدار البيضاء، ط١ ، ١٩٨٨، ص ٣٢.

الـواثبينَ إذا يُقـال : تـأهّبوا   والقـاحمينَ إذا يُقـال : بـدارِ

وتتجلى أهم مظاهر التوازي في المماثلة التركيبية المكررة عدداً من المرات ، بالمماثلة أو المخالفة ، وينتج من ذلك تأكيدات على مستوى المضمون ، وإثراء للنص على مستوى الإيقاع والتشاكل والاتساق ، فطبيعة الشعر في النهاية تكرارية ، يقول(١):

لـولا الحنـينُ لمـا بكيـتُ أحبـةً   كانت تضمهُمُ دمشقُ وتجمعُ
لـولا الحنـين لمـا بكيـتُ لياليـاً   كانـت دمشقُ بهـا تجـودُ وتمنعُ

والأمر ذاته ينطبق على الصيغ الصرفية التي تؤدي وظيفة ـ بالتوازي ـ لا تقل عن وظيفة التوازي التركيبي(٢):

مُتَفَجّـعٌ مُتَوَجّـعٌ قلـقٌ   يُـذكي تنهّـدُهُ توقّـدَهُ

إن هذه النصوص المعتمدة بنيّة التوازي ليست إلا ترجيعاً وتكريراً للبُنى الإيقاعية والدلالية والتصويرية ، وهذا ما يعني في النهاية انسجاماً للنص في مستوياته الفنية الأربعة : الإيقاع ، واللغة ، والصورة ، والدلالة (٣):

رِيعَ الفضاء لها فجلجلَ قاصفٌ   وتزلزلـت أرضٌ وخَـرَّ مَـشِيدُ

المفهوم الثاني الذي يواجه لغة الشعر هو الانزياح ، والمقصود به الخروج عن السنن اللغوية والاستعمال العادي للغة ضمن ضوابط وقيود ، وأبرز مظاهر الانزياح التقديم والتأخير .

---

(١) الديوان :١٣٩.
(٢) الديوان : ٢٩٤.
(٣) الديوان : ١١٧.

الملحوظ أن الزركلي اعتمد التقديم و التأخير على نحو بسيط ، منساقاً وراء وظيفة الإظهار و التأكيد على المقدِّم، وإثارة انتباه القارئ إلى المقدِّم، وبعض هذه التقديمات تفترضها أحياناً طبيعة التركيب النحوي للجملة ، كما في الأمثلة الآتية[1]:

تلطِمُنا في كل يوم يدٌ ... ونحن نحتجُّ ونستنكرُ

أين من يبتغي الوفاء لأرضٍ ... قد سقى جوفَها دمُ الشهداء

أما تقديم شبه الجملة فهو تصرّف عام بين الشعراء، وتتحدد جماليته في القصدية، لا في اعتماد الصيغة النحوية الواجبة[2]:

ذكرَ الشامَ فأجرى دمعَهُ ... مستهلاً وله في الشام أهلُ

يا ليالِيَّ بوادي جِلَّقٍ ... هل تُرى يتبعُ منكِ الوصلَ وَصْلُ

والملاحظ أن الانزياح بالحذف لم يُعوّل عليه كثيراً، لأنه إلى حدٍّ ما يتعارض وبنية التوازي التي تفترض إظهار ثوابت الجملة و متعلقاتها وتوابعها ، أما الانزياح بالاعتراض فجاء في سياقه المتداول ، ولم يؤد ـ إلا فيما ندر ـ

وظيفة جمالية مقصودة[3]:

فيمَ الونى وديارُ الشامِ تُقتسمُ ... أين العهودُ -التي لم تُرعَ - والذممُ

---

(١) الديوان : ١٠٠.

(٢) الديوان : ٢٦١.

(٣) الديوان : ١١٦ ، ١٦٤ ، ٢١٣.

جذوع المظالمِ - لو تنطقينَ - قَرّحتِ في الناسِ أجفانَها
ليس الجوارُ - إذا عدلت - بِمقنعٍ يأبى الشقيقُ عليك حقّ الجارِ

الصــورة:

الصورة ربيبة الخيال، ولا شعر من غير صورة، وهي في النهاية إثارة الكلمات الشعرية في الذهن معبّرة و موحية، وعلاقة تتواشج فيها البنى اللغوية والصوتية والدلالية(١).

إن الدراسة الموضوعية للصورة في شعر الزركلي الوطني تقتضي الوقوف على جملة من المحددات المتعلقة بمنتج الصورة نفسه، وتكوينه الثقافي والفكري و النفسي، وأسلوبه الشعري، وعلاقته بالشعر السابق عليه... وتأسيساً على ذلك جاء معظم صور الزركلي (التشبيهية والاستعارية والكنائية) بسيطاً سهلاً وواضحاً، لا يقوم على الإبداع بقدر ما يقوم على الاحتذاء، لا يعتمد الخيال المغرق وتباعد طرفي الصورة، ومع هذه السمات لا يحتاج القارئ إلى التأويل أو العناء في التلقي.

ومن حيث الأنواع غلب التشبيه على الصورة، وغلبت الحسية على التشبيه، فكانت الألفة سمتها الغالبة، وقسم غير قليل من هذه الصور يدور في فلك الشعر القديم وصورة النمطية(٢):

شقَّ جُنحَ الظلامِ يمشي إليهم رابطَ الجأشِ مِشيةَ الرئبالِ

(١) خصوصية الشعر، عباس إبراهيم، د.ن، حمص، ط١، ١٩٩٤، ص٢٢.
(٢) الديوان: ١٨٨.

ولا يخلو بعض الصور من المبالغة التي تفترضها طبيعة الموضوع وإحساس الشاعر بالحدث ، وتفاعله الوجداني معه، وإن بقيت الصورة في حدود التلقي البسيط[1]:

والـــدمُ كالغـــدران ـــــ مـــن مُهـــجِ الطّـــرّاق

والحق أن المسحة الجمالية العالية في صور الزركلي تتأتى من بناء «المشهد» الذي غالباً ما يفعّله الزركلي عندما يكون موضوع القصيدة حدثاً من الأحداث ذات الأثر الكبير في وجدان الشاعر[2]:

تنـاثرتِ الجماجـمُ في ثراهـا ـــ معفّـرةَ المحـاجرِ و الحـدودِ

مضت أرواحها تشكو البرايا ـــ لخالقهـا وجـدّت في الـصعودِ

كما تتأتى من قُرب الموضوع من ذات الشاعر ، وتجربتها ، وتمثيلها حال الذات تمثيلاً ذهنياً[3]:

مـا لي تـساورني الهمـومُ كـأنني ـــ هـدفُ الليـالي والزمـان يـصيدُ

أو من العالم التخييلي الذي يقيمه الشاعر حول حدث أو شخصية من التراث ، ولعل الصور التي أبدعها الشاعر في قصيدة« صقر قريش» خير مثال على ذلك[4]:

سرى وحيداً على اسم الله سيرَتُهُ ـــ مُتــيماً بابتنــاءِ المجـدِ مَفتونــاً

سعياً تحـار لـه الأفـلاكُ مُتـصلاً ـــ يـسابقُ الـريحَ فيـهِ لا الـشواهينا

(١) الديوان : ٥٣.

(٢) الديوان : ٢٩٠

(٣) الديوان : ١١٨.

(٤) الديوان : ٨٣ .

والخيلُ في جنباتِ البرِّ حائمةٌ حومَ النسورِ بفرسانٍ مغيرينا
يبغونه وهو يطوي البيدَ شاسعةً مُجلبباً بظلامِ الليلِ مدفونا

ويتضح في استقراء شمولي للصورة في شعر الزركلي الوطني، أن الشاعر كان يكرر الصورة في أكثر من موضع في شعره، مع اختلاف الموضوع والقصيدة، ومردّ ذلك إلى غلبة النمطية على الصورة عموماً، وثقافة الشاعر المكتسبة، وما لبعض الصور من دلالة على الفكرة التي يريد الشاعر تجسيدها[1]:

ما بينَ يَومَي فقدِهِ ووجودِهِ حلمٌ كوميضِ البرقِ شعَّ ضياؤُهُ
حِجىً كوميضِ البرقِ ألقى شعاعَهُ ورأيٌ كحدّ العضبِ ليس بمغلولِ
يا أيها المنطلق كالبرقِ إذ يأتلق
تقدّم زاحفاً كالبرقِ يجري ويحسِبُهُ المُحدِّقُ فيه طارا

الموسيقا والإيقاع :

الإيقاع معنى عام يشمل النصوص الشعرية والنثرية، والبنية الإيقاعية للنص هي جزء من بين أخرى متكاملة، وفي الشعر هو ملمح فارق وجوهري بتعالقه مع الوزن، وإذا كان الوزن يمثل الموسيقا الخارجية، فإن ثمة موسيقا داخلية مرتبطة بالبناء الكلي للنص، وبعوامل نفسية ووجدانية تفرضها ذاتية الشاعر، وعلى هذا مستويات الإيقاع تتمثل في مستويين: إيقاع ثابت (الوزن والقافية) وإيقاع المتغيرات (التقديم والتكرار والمقابلة والطباق والجناس والتوازي...).

(١) الديوان: ٢٢، ١٠٤، ١٠٦، ٢٥٩.

لقد رمز الزركلي لنصوصه إيقاعية واضحة، تم الوقوف عند بعض مظاهرها في أثناء الحديث عن اللغة الشعرية .

لم يخرج الزركلي عن ألفه الشعر الكلاسيكي من استخدام لبحور الشعر ، فقد أكثر من الكامل والطويل والبسيط والوافر ، كما أنه نظم على معظم حروف العربية ، وذلك كله على نظام الشطرين، إذ لم ينظم الشعر الحر أو قصيدة النثر ، مع الإقرار بوجود محاولات للتحرر من القافية وحرف الروي .

ثمة ظاهرة لافتة في شعر الزركلي هي«الطباق» وال« المقابلة» ولها قيمة إيقاعية كبرى في شعره ، ومرد ذلك ، التناقضات التي عاشتها المرحلة آنذاك ، والتقلبات التي عاشها ، والصداع الذي جسده في شعره بين العدل والظلم ، والحرية والاستبداد، والحاكم والمحكوم .... من ذلك[1]:

وإنما الفوز لشعب صحا   والخسر حظ الأمة الساجية

لا يعلمون أفي سواد دجنة   هم سهد أم في بياض نهار

الليالي تمر سودا وبيضا   تتوارى نجومها وتطل

وتمر الحياة بؤس ونعمى   حلم هذه الحياة ممل

ولا تعتقد هذه الإيقاعية العالية على الطباق ، إذ تعتمد أيضاً الحروف والصيغ الصرفية والتوازي.

---

(١) الديوان : ١٥٦ ، ٢١٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

مظاهر التجديد في الموسيقا والإيقاع :

- الإبقاء على الوزن والقافية ، والتنويع في القوافي في كل مقطع من مقاطع القصيدة ، ويبرز هذا النوع في الأناشيد أكثر ما يبرز:

أوطاننـــــا أوطاننـــــا　　　مهد الهدى والـذكريات

مهـد العـلا مجلى الـسنا　　　رمـز العـصور الخاليـات

* * *

الطـــــير في جناتهـــــا　　　يـشدو بألحـان الأصـيل

مـــــرددا آياتهـــــا　　　لا نرتـضي عنهـا بـديل

أوطاننـــا أوطننـــــا

وهكذا.

اعتماد موسيقا متنوعة الأنغام ، في النشيد خاصة - ذات أوزان خفيفة، مجزوءة أو مشطورة ، أو إضافة تفعيلة ليكون نظم مناسباً للمضمون(١):

أبكي ديارا خلقت للجمال

أبهى مثال!

أبكي تراث العز والعز غال

صعب المنال

ابكي نفوسا قعدت بالرجال

---

(١) الديوان : ٣٤ .

عن النضال

أبكي جلال الملك كيف استحال!

إلى خيال

- نظم أناشيد على أنغام اغان معروفة ، مثل نشيد«بلادي» الذي جاء على نغم«لولو بلولو .. وش بدك مني آه ... تسأل عني ليه ... أمر الله ونفد ... يا لولو»، ومنه :

أبكـــي بـــلادي ومجـــد قـــومي

لـــو كـــان يجـــدي نـــدبي ولـــومي

فمتى ...

أحرار العرب تفيق . لسنا بعد نطيق ، طول الرقاد.

- تنويع القوافي وحرف الروي، إذاً يأتي أولاً ببيتين كلازمة ، ثم يأتي بمقطع من سبعة أبيات مختلفة الروي والقافية ، ثم يكرر اللازمة التي بدأ بها النشيد وهكذا ....[1]:

في ذمـــة الأحقـــاب والفلـــك الـــدوار

شـــهاب مجـــد غـــاب في ملـــك الإعـــصار

* * *

الطلـــل البـــالي والـــسع والغيهـــب

والـــشامخ العـــالي في الـــسبب الأرحـــب

* * *

(١) الديوان : ٥٠ .

في ذمـــة الأحقـــاب   والفلـــك الـــدوار
شـــهاب مجـــد غـــاب   في ملـــك الأعـــصار

- النظم على حرف روي معين يبدأ به النشيد ، ثم يغير الروي في البيت الثاني ليعود اليه في الثالث ، ثم يعتمد حرف روي آخر في الرابع .... وهكذا ، ويعمق هذا التنويع اذا كان النشيد مصرعا ، وعلى نغم أغنية ، كما في نشيد«ياأمة العرب» الذي نظمه على نغم أغنية«الروزنا عالروزنا كل الهنا فيها»(١).

معاشر العرب أموا قبلة المجد   وحبكم غفلة عن نهضة تجدي
لذ الخمول لكم حنيا من الدهر   نصرتم أعبداً للذل والقهر
نمتم فلا ناهض في السر والجهر   وخلتهم أنكم في ظلمة اللحد
سيروا إلى مجدكم روحاً وأبداناً   واسعوا الى عزكم شيباً وشبانا

إذاً ، ثمة وعي فني بأهمية الإيقاع في الشعر الوطني عند الشاعر ، وبخاصة النشيد ، ليحقق النص أثرا في المتلقي ، ولا عجيب في ذلك ، فالزركلي كان واحداً من أهم من وضعوا الأناشيد في المدارس السورية، وهي في الديوان تزيد عن عشرين نشيداً وطنياً(٢).

يقول في قصيدة بعنوان« إلى الرشيد»(٣):

(١) الديوان : ١٣٦ .
(٢) انظر : خير الدين الزركلي الشاعر العلم ، عماد حمرة ، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة ، ٢٠١٥، ص ٤١ .
(٣) الديوان : ١١٥ .

إليك أبا الأمينِ العُربُ تشكو ... مـراراتٍ تفـيضُ لهـا الـشؤونُ
إلى المـأمونِ تـشكو مـا عراهـا ... ويبكــي قبــل مبكــاه الأمــينُ

هذا على مستوى استدعاء الشخصيات التراثية ، أما على مستوى لغة النص، فالزركلي – كما تقدم – زاوج بين معجمين شعريين تراثي وحديث ، ونتيجة لهذه المزاوجة أمكن تسرب الكثير من التعبيرات الشعرية السابقة في شعره ، يقول[1]:

بيضُ الوجوهِ لهم في كلِّ مكرمةٍ ... يـدٌ قـد انبـسطت سراً وإعلانـا

الذي يستدعي ضمناً تعبيراً شعرياً في شعر حسان بن ثابت في قوله:

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهم ... شمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

ونظراً إلى طبيعة التكوين الفكري عند الزركلي ، وثقافته الإسلامية الواضحة في شعره ، قام باستحضار نصوص قرآنية كثيرة في شعره ، غلب عليها الطابع التركيبي الذي يكيّف النص المستحضر مع الصياغة الشعرية عبر عمليات عدة من التركيب والتكثيف والاقتطاع وإعادة الصياغة .

التداخل النصي / التناص :

إن أي نص هو نتاج عمليات معقدة من التفاعل والترابط والتشرب والتحويل لنصوص أخرى، هذه العمليات هي ما يعرف

(١) الديوان : ٢٤٨ .

بالتداخل النصي Inter textuality الذي يعني «التقاطع» داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى»[1].

يخضع التداخل لآليتين بارزتين هما الاستدعاء والتحويل، الاستدعاء إما توافقاً أو تغايراً، قصداً أو من غير قصد، والتحويل من خلال تغيير بنية المنقول اللغوية، أو قلب المعنى، أو تغيير السياق أو حذف بعض الجزئيات... أو الاقتباس المحروف من مساره»[2].

من هذه الرؤية، شعر الزركلي الوطني في قسم كبير منه حصيلة تراكم شعري ومعرفي وثقافي... نظراً إلى سعة ثقافة الشاعر وامتداد تجربته الشعرية في مراحل كثيرة، ومخزونه التراثي الكبير في الشعر والتاريخ الذي وظف قسماً منه في شعره الوطني، ولاسيما حين يقيم الفكرة بين عالمين: ماضٍ (مجيد وحر وكريم وبطولي...) وحاضر (مسلوب ومضطهد ومشتت وضعيف...) فيأتي الاستدعاء غالباً من أجل محاكاة الحاضر لما يقابله في الماضي.

كما في قوله[3]:

تلظّى الأُوارُ وعمَّ الدمارُ ... وجُنَّ جنونُ بني آدمِ

الذي يتداخل مع الآية القرآنية: «فأنذرتكم ناراً تلظّى» (الليل : ١٤)

---

(١) في أصول الخطاب النقدي الجديد، تزفتان تووروف وآخرون، ترجمة أحمد المديني، عيون المقالات، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٩، ص١٠٢.

(٢) درس السيميولوجيا، رولان بارت، ترجمة عبد السلام، بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١٩٩٣،٣، ص٦٣.

(٣) الديوان: ٣٣٩.

وتعدّ قصيدة «صقر قريش» أنموذجاً متكاملاً على هذه التداخلات، التي تأتي تراثية تاريخية فيها الكثير من الإسقاطات على واقع الشاعر والوطن والأمة ، والتوظيفات الفنية الداعية ضمناً إلى عدم الاستكانة إلى الصعوبات والمعاناة ، وتذليلها بإصرار الإنسان على بلوغ الغاية التي يسعى لها كما فعل « الصقر» ، لذلك جاء في نهاية القصيدة[1]:

نَم شامخاً في الثرى جبارَ أندلسٍ وأصحب بروحك ميكالاً وجبرينا

واترك رُفاتَكَ للأجيالِ تذكرةً وعبرةً للمطيعين المُلبّينا

في مستوى آخر ، يصل التوظيف بالتركيب إلى حدود الاقتباس الحرفي ، وتوليف المستدعى مع الصياغة والوزن والقافية ، وبخاصة عندما يكون المستدعى نصف بيت شعري غني الدلالة في التعبير .

عن الموضوع المطروح . يقول في قصيدة« لله للأيام»[2]:

لولا الحنينُ لما بكيتُ لياليا كانت دمشقُ بها تجودُ وتمنعُ

لولا الحنينُ إلى دمشقَ وأهلِها جفّت بمقلتي الشؤون الهُمّعُ

لولا الحنينُ لما بكيتُ بجلّقٍ (قمراً يغيبُ وألفَ بدرٍ يطلعُ)

يستدعي الشاعر نصف بيت في سياق قصيدته في دمشق ، وهو من بيتين شهيرين هما:

عرِّج ركابَكَ عن دمشقَ فإنها بلدٌ تذلُ لها الأُسودُ وتخضعُ

(١) الديوان ٣٣٩.

(٢) الديوان ١٣٩.

ما بينَ جابيها وبابِ بريدها قمرٌ يغيبُ وألفُ بدرٍ يطلعُ

وهما بيتان كتبا على حجر بجانب قوس النصر في مدخل الهيكل الغربي الذي شيد محله الجامع الأموي ، وكان الدمشقيون يتناقلونهما زمناً ، وينسبان إلى حسين بن أحمد الورنلي الساعاتي ، وإلى علي بن رضوان.

فأصبح المستدعى جزءاً من نسيج النص المستدعي ، في فضاء التوازي العام ، دالاً على دلالته ، وخاضعاً لأسلوبية المنشئ (الزركلي) مع تغيير طفيف اقتضته طبيعة الاستدعاء ونحوية النص الأصلي (قمرٌ ... و ألفٌ... - قمراً.... وألفَ).

إن مفهوم«الإنتاجية» الذي قال به منظرو التناص يجد حيّزاً واسعاً في شعر الزركلي ، بمعنى أن ينتج الشاعر نصاً على نصٍ آخر ، وأقوى أنواع هذه الإنتاجية ، وأكثرها تحدياً للشاعر ما أطلق عليه الزركلي في قصيدة له حملت عنوان« تشطير» ، وفيها يذهب الشاعر إلى قصيدة عروة بن حزام الشهيرة التي يقول فيها:

أحقاً يا حمامةَ بطنِ وجٍّ بهذا النوحِ أنك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لأن ليلي أواصلُهُ وأنك تهجعينا
وأني إن بكيتُ بكيتُ حقاً وأنك في بكائك تكذبينا
فلستِ وإن بكيتِ أشدَّ شوقاً ولكني أُسِرُّ وتعلنينا
فنوحي يا حمامةَ بطنِ وجِ فقد هيجّت مشتاقاً حزينا

هذه الأبيات الخمسة تصبح عشرة عند الزركلي بتشطير مبدع يتماهى في النص الأصلي حتى لا يشعر القارئ أن ثمة صوتاً جديداً في النص . يقول:

أحقاً يا حمامةَ بطنِ وجٍ　　　رُميتِ من الزمانِ بما رُمينا
لقد زعموكِ شاكيةً وخالوا　　　بهذا النوحِ أنكِ تصدقينا
غلبتك بالبكاء لأنّ ليلي　　　يمثل لي ديار العُرب هونا
وأني إن سهرتُ الليلَ همّاً　　　أواصله وأنك تهجعينا
وأني إن بكيتُ يكيتُ حقاً　　　مضاعاً بين أيدي معتدينا
وأن دموعَ جفنكِ غيرُ دمعي　　　وأنك في بقائك تكذبينا

وهكذا....[1].

مما تقدّم نستطيع القول إن الزركلي في شعره الوطني وفّر لنصوصه بناء لغوياً وتصويرياً وإيقاعياً بالغ الثراء ، إضافة إلى التداخلات النصيّة التي أقامها مع التراث السابق عليه، مما أعطى النص قيماً فنيةً و ألفةً شعريةً أبقته في حيّز الشعراء المبدعين الكبار ، وهذا ما يقف وراء وصف الشاعر برهافة الحسّ، ودقة التعبير ، ومجال الصورة الشعرية ، ولطف الأسلوب[2].

(١) الديوان : ٤٢ .

(٢) خير الدين الزركلي شاعر الوطن ، اكرم قبنس ، ص١٠.

مراجع الدراسة

١ – الأعلام ، الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٩٠.

٢ - بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ت محمد الولي ، محمد العمري ، دارتوبقال ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٨٦.

٣ - خير الدين الزركلي الشاعر العلم ، عماد حمرة ، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة ، ٢٠١٥ .

٤ - خير الدين الزركلي شاعر الوطن ، أكرم قبنس ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠١١ .

٥ - خصوصية الشعر ، عباس إبراهيم ، د. ن ، حمص ،ط١ ، ١٩٩٤ .

٦ - درس السيميولوجيا ، رولان بارت ، ت عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط٣ ، ١٩٩٣.

٧ - ديوان الزركلي ، الزركلي : - مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠ - المطبعة العربية بمصر ، ١٩٢٥.

٨ - الشعراء الأعلام في سورية ، سامي الدهان ، دار الأنوار ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٨.

٩ - الشعرية، تزفتان تووروف، ترجمة رجاء بن سلامة ، شكري المبخوت، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٩٠.

١٠ - ظواهر نصيّة ، نجيب العوفي ، عيون المقالات ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٩٢.

١١ - علم الأعلام خير الدين الزركلي ، د. نجاح العطار ، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٧٧ .

١٢ - في أصول الخطاب النقدي الجديد ، تزفتان تووروف وآخرون ، ترجمة أحمد المديني ، عيون المقالات ،الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٨٩.

١٣ - قضايا الشعرية رومان ياكبسون ، ت محمد الولي _ مبارك حنون ، دار توبقال ، الدار البيضاء، ط ١ ، ١٩٨٨ .

١٤ - من الديوان السوري ، إسماعيل مروة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠١٦ .

١٥ - النقد الأدبي و العلوم الإنسانية ،جان لوي كابانس ، ت فهد عكام ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٦

ساعتان في حضرة الزركلي
صورة عن قُرب

أ. أحمد المفتي

ما أخال أنَّ امرءاً عاش بين قرنين من الزّمان تمثّلت وحدة الوطن في شخصه كالزّركليّ خير الدّين...

فقد حمل صفاتٍ، وجنسيّاتٍ، وقوميّاتٍ. وتقلَّدَ المَناصبَ وامتلك ناصية الشّعر، ولوى أرسان البيانِ وتنكّب الصّحافة، وعمل في السياسة، وروى التّاريخ، وغاص في بطون المخطوطات العربية باحثاً منقّباً مسجّلاٍ سير الأعلام من أمة العرب والمسلمين وغيرهم جامعاً تراث الأمّة.

بقامته الفارعة المديدة التي هي إلى الطّول أقرب، وبعينين يشعُّ منهما ذكاء عجيب، وببشرته السمّراء الحنطية التي تحمل لون القمح الشّاميّ، استقبلني بحرارة مردّداً قول عوف بن محلّم الخُزاعي:

إنّ الثمانين وبُلّغتَها ... قد أحوجت سمعي الى تَرجُمانِ

كان المرض قد أخذ من هِمَّتِهِ قليلاً ، لكنّه لم يأخذ من توقُّد ذهنه وصفاء ذاكرته ..جلس مُحدّثي طويلاً ، مطوّفاً بي أرجاء الوطن العربيّ الكبير ، ثمّ توقّف فجأةً عند دمشق الشّام وانهمرت دمعتان شوقاً لرياضها ، وماء فيجتها ، ورُواءِ برداها ... وسألني عن غوطتها ودُمرّها، وهامتها ... مردّداً ....

زدني وهِجْ ما شِئتَ من شجني	إن كنتَ مثليَ تعرفُ الشجّنا
أذكرتني ما لستُ ناسيه	ولربّ ذكرى جدّدت حَزَنا
أذكرتني بردى ووادية	والطيرَ آحاداً به ، وثُنى
وأحبّةً أسررتُ من كلَفي	وهوايّ فيهم لاعجاً كمناَ
كم ذا أغالبه ويغلبني	دمعٌ إذا كفكفتُه هتَنَا
لي ذكرياتٌ في ربوعهم	هنّ الحياةُ تألقاً وسَنَا
إنَّ الغريب معذّبٌ أبداً	إن حلَّ لم ينعم وإن ظعنا

كان ذلك في بيروت في سبعينيات القرن الماضي ، وقبل أن يرحل إلى القاهرة الرحيل الأخير ... وهو يوُدِعُ بين يديّ مسوّدات ديوانه الشعريّ قبل أن يودّع الحياة ويرتقي إلى السموات العلى .....

ذلكم هو الباحث المؤرّخ الشاعر السياسيّ الصّحفي العلاّمة خير الدين الزّركليّ الدمشقي الذّي تعدّدت مواهبه ، وتنوعت مصادر ثقافته، وتلوّنت حياته بالمهمّات الجسيمة التي ألقت بكلكلها عليه ، فكان فارساً ابنَ فارس ، فهو خير الدين بنُ محمودٍ بنُ عليّ ابن فارس . امتطى صهوة الأدب ، وجال في التأليف الموسوعيّ، ومضى في العمل السياسي يدافع عن العرب والعروبة ، فلاحقته سلطات الانتداب

الفرنسيّ بسوريّة وحكمت عليه حكماً بالإعدام أكثر من مرّة ، وأُغلِقت صحفهُ التي أنشأها في كلٍّ من سورية ومصر وفلسطين ، وما ذلك إلا لأنه كان عربياً يطالب بالحرية لأمته العرّبية ....

ذلكم هو الزّركليّ الذّي عرفته عن قرب ... وذلكم هو السياسيّ الذي حدّثني عن مذكرّاته التي لم تُطبع حتى الآن ، ولا أدري أين هي ، وما حلّ بها ...

حدّثني عن المراحل المؤلمة التي عصفت بالأمّة العربية منذ سايكس بيكو وما قبل سايكس بيكو ، وكان صوته يغيب ويتهدّج بين أصوات القذائف والرّصاص ، وقد خرج حديثاً من مشفى الجامعة الأمريكية ببيروت ، ونيران الفتنة يتطاير شررها ،وتتقِّدُ حماها الطائفية في هذه المدينة الجميلة الوادعة عاصمة النشر التي كانت تدعى سويسرا العرب بيروت ، وكان ينظر بأسى وتتقِدُ عيناه جمراً ، ويتقطّر فؤاده حزناً لما يجري ... وبيروت أخت دمشق في تعريفه فكيف يرحل عنها إلى القاهرة بعد أن غُيّب عن دمشق ....

كان يخاطب القناص الذي يُقَطّعُ الشارع القريب من داره...

اضرب فهـذا أخوكـا — واطعـن فـذاك أبوكـا
ألـست قنـاص حـيٍّ — أقـامَ فيـه ذووكـا
بنو عمومتك الأقربون — بـل هـم بنوكـا
سـلط علـيهم رصاصـاً — واسـحق فهـم أهلوكـا
ويـرحم الله مـن إن — رحمـت لم يرحموكـا

ذلكم هو الزركلي العالم الجليل الشيخ الذي جلستُ في حضرته ، وكم تسمو النفس حين تجلس مع علماء عظماء ، جلستُ متأملاً وجهاً أرّقته الحروب ، ونال منه الزّمان ، وصقلته السّنون ، فإذا هو والحكمة صنوان ... قرأ لي شيئاً من مذكراته ، فسحرت ببيانه وبعذوبة اللفظة واسترسال الجملة .... ثم دفع إليّ الأوراق فقرأت فيها ، وكان ذلك قبل أن تُطبَعَ حديثاً في كتاب أطلق عليه ناشروه اسم ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكّة ، ثم صنّفوه ضمن أدب الرحّلات وما هو إلاّ كتاب مقتطع من مذكّرات الزّركليّ ....

قرأت فصاحته وأدبه وبيانه ، فراعني ما قرأت ، وأنا أتنقّل معه بين السّطور ... وفاجأني بقوله : مالك ولقراءة السّرّ ... اجهر بصوتك فإني أحبّ أن أسمع قراءتك ... فقرأت له هذا المقطع من أدبه الرّفيع من مذكرّاته ....

قرأت قوله :

كانت الشمس قد مالت للغروب ، وكان مدير المكوس قد أعدّ لي رَكُوباً ، يعرفه من يجتاز هذه المرحلة بين الثّغر و أم صبح ، فركبت بصحبتي خادمٌ أو دليل لا أدري ... وعهدت بإرسال ثيابي وأمتعتي مع الجمّالة إلى مكّة ....

تنقلت في ذلك الوادي المكفهرّ بين رمالٍ وتلال ، وقد أثّر بي تتابع السّير بحراً وبراً ، حتى كان منتصف الليل ، فنزلنا في قهوةٍ – أو مقهى – كما يسميها بعض كتّابنا – وراودت نفسي على الطعام فأبت ، إلاّ كأسين من الشاهي (الشايّ) واستلقيت أهمّ بالنّوم ، وطائي الأرض وغطائي السماء ، فلم يعلق في جفني أثره ، حتّى كان الخادم يوقظني

.... فسألته عمّا بدا له ، فقال : الرّاحة هنا ساعتان فنهضت متلكّئاً متكسِّراً ، أتوكّأ على رفيق الطّريق .... وأمسك لي رقبة البهيم

ليمنعه من الجري ، إذ كان عنانه حبلاً لففناه على عنقه .!. فركبت واستأنفنا السّرى .

بزغت الشمس ، ومكة منا على قاب قوسين - فيما تراءى لي - أو أدنى ، فالتمست ممن معي أن يأذن بالراحة قليلا ، فأقنعني بأن ما بيننا وبين مكة لا يقل عن ساعتين ، وخوفني من حرارة الشمس إذا هي قاربت كبد السماء . فاستمر بنا السَير متصلاً بالسرى إلى أن كنا على أبوابٍ أم فندق ، فقال لا ... فقلت لننزل في الحرم .

واخترقنا منازل مكة والضحى في رأدة .. فبلغنا الحرم وأكرمت الدليل ،فانصرف بعد أن حمّلته ورقة كتبتها إلى مدير صحة الحجاز الطبيب نديم صلاح ، وكان قد سمّي لي في جدة . دخلت الحرم من أقرب أبوابه إليَّ ، ودنوت من الكعبة فاستقبلني أحد الجالسين حولها ، وقد رآني محرماً ، فسألني : هل أريد الطواف ، فقلت : أما الساعة فلا وسقطت على حصباء البيت العتيق ، والألم من متاعب ليلتي آخذ من جسمي مأخذه .. أجّلت النظر في ذلك البناء المقدس ، فراقني مشهد الطائفين حول قبلة عالم الإسلام ، ولأن مرأى الحمائم تزدحم وتقتحم، وتروح وتغدو آمنات كل أذى ، راتعات في كل جانب ، حرم الله صيدها فتوالدت وتكاثرت وأنست بالإنسان ،فمنعها الله ميده وشره ، وقديماً ضربتِ العرب أمثالها بأمنها وألفتها فقالت : (آمَنُ مِن حمام مكة) .

وقال النابغة شاعر الحجاز:

وبينما أنا مستلق على الصعيد أتقلب ذات اليمين وذات اليسار ، إذ طلع علي شابٌ في رداءٍ أبيض ملتفٌ بعباءة رقيقة ، أسود اللحية ، لم أعرفه إلا بعد أن رفع صوته بالترحيب ، فأجبته والدهشة من لقائه ملء نفسي ..

يوسف .. يوسف ياسين لاذقي المولد ... أنت هنا ؟..

وتدحرجت قطرتان من ماء الشوؤن على خده وهو يصغي إليّ ويثني على قراءتي ...

ومضت ساعتان وأنا بحضرته ... ثم ودعني حتى الباب وهو يوصيني بإخراج ديوانه بالشكل الجميل ، والحرف الجميل الذي ظل يعشقه حتى مماته .

ذلكم هو أبو غيث الشاعر الذي عشق العربية في ألفاظها وتراكيبها فساقها في شعره سحراً لا يعرف ذائقته، إلاّ محبٌ ذوّاقة جاز مرحلة التخلي والتحلي فوصل إلى التجلي على مذهب المتصوفة . كما وصفه المؤرخ الدكتور شاكر مصطفى في قالته فقال .:.. إنه سيد من أسياد المنابر مع شوقي وحافظ والرصافي والزّهاوي إنه النبتة العربية الأصيلة التي نبذت في الشام وتنزل الشعر على لسانه فكان كالحديث العفوي .. ففي الشام الكلمة الحلوة عبادة والأقانيم القومية قدس الأقداس حيث بردى يماشي النيل والرافدين ، وهو الساقية المسكينة التي أنبتت النسغ القومي للملايين . ولا بد للشاعر لأن يكون شاعر الجماهير أن يفهم الأبجدية الشامية وينهل منها كما نهلها الزركلي فكان شاعر الجماهير ..

كانت الساعتان اللتان قضيتهما في حضرة مؤرخ كبير أديب شاعر جليل سياسيّ يخبئ في جعبته تاريخ أمة عاش أحداثها وكان أحد الفاعلين في أيامها كأنها لحظات وثوان ....

نهلتُ من نبعه ما نهلت وغببت من مَعينه الخبر القراح .. لم يحدثني عن رحلاته وإنما أشار إلى ما أصاب و أفاد من مخطوطنا العربي و من كنوز العلم و المعرفة المخبوء في مكتبات العالم ،وهو الذي جال في خزائن مخطوطنا العربي المحفوظ في خزائن أمريكا وإنكلترة وتركية وإيطاليا واليونان وسويسرة وتونس ولم يجد ونىً في أن يركب إلى آخر المعمورة إن حدّث عن مخطوط يحمل خبراً عن بحث يفيده..

ذلكم هو أبو غيث .. الذي عاصر أكابر علماء دمشق الشام فنهل من علمهم وكان رفيقهم المتميّز في رؤاه .. كان مع جمال القاسمي والشيخ طاهر الجزائري مؤسس الظاهريّة ، والعلاّمة محمد كرد علي ، وعبد القادر بدران ، ومحمد كامل القصّاب صاحب المدرسة الكاملية التي عرفت بالهاشميّة ... وقد درّس الزركلي بها .. وانتخِب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ثلاثين وتسعمئة وألف - ١٩٣٠ - وفي مجمع القاهرة سنة ست وأربعين -١٩٤٦ - وفي مجمع العراق سنة ستين وتسعمئة وألف -١٩٦٠ - .

من منّا لا يعرف الشاعر الكبير الجليل ، والسياسيّ المحنّك ، والمناضل الشامخ ومؤرّخ العصر وأديب العربيّة خير الدين الزركلي الذي طبقت شهرته الآفاق من خلال موسوعته الأعلام ، من منّا لا يعرف الزركلي صاحب صحيفة الأصمعي التي أصدرها سنة اثنتي عشر وتسعمئة وألف وهو في ربيع عمره في سن التاسعة عشرة،

فصادرتها وأغلقتها الحكومة العثمانية لما رأت فيها من تفتح زهرات النهضة العربية .

وكذلك صحيفة لسان العرب سنة ثمان عشرة وتسعمئة وألف ، وصحيفة المفيد سنة ألف وتسعمئة وعشرين والتي أغلقتها سلطات الانتداب الفرنسي سنة عشرين بعد التسعمئة وألف وبعد ميسلون ودخول غورو دمشق والحكم على خير الدين الزركلي بالإعدام ..

لقد رحل الزركلي إلى بلاد الحجاز ، وعمل مع الشريف حسين ظنّاً منه أن الشريف قادر على لمّ شعث العرب ، ورحل إلى شرق الأردن بإشارة من الشريف ليعين ولدَه عبدالله على تأسيس حكومة في الأردن ، والأردن يومها موئل أحرار العرب من بلاد الشام ... وحين خاب ظنّه وخبا فأله في الأمير عبدالله ورآه يرتع في أحضان الإنكليز الذين ركبوا ظهر أبيه للوصول إلى مراميهم الخبيثة ، لمّا رأى العمالة من أجل الحفاظ على تاج ، يمم وجهه شطر مصر ، ليؤسس هناك مطبعة ترفد الفكر العربي بما يراه تنويراً للجيل الناشئ من أمة العرب ....

وحين ساءت حاله صحيّاً باع المطبعة وغادر القاهرة إلى فلسطين، فأصدر جريدة يومية في القدس هي جريدة الحياة ، وشارك في تحرير جريدة الدفاع التي أصدرها الشاعر إبراهيم طوقان في يافا ... ولم يعرف الحدود المصطنعة والسدود الإقليمية ، وأحسّ أن الوطن العربي الكبير هو الوطن الذي ينتمي إليه ويدافع عنه ،فليس من مشرق أو مغرب وليس من سورية وفلسطين ولبنان وشرق الأردن والعراق والمغرب ومصر.. لم يعترف بتجزئة جاءت على وفاق سايكس بيكو...

لقد دعاه الملك عبد العزيز فلبّى الدعوة ، وعمل مستشاراً في مفوّضية القاهرة سنة أربع وثلاثين وتسعمئة وألف ، وشارك مع صديقه يوسف ياسين اللاذقاني في وضع لبنات الجامعة العربية فكان من مؤسسيها ، ثم عمل سفيراً للسعودية في المغرب، وندب سنة ست وأربعين ليكون في وزارة الخارجية، وكان وزيراً مفوّضاً ثم مندوباً دائماً في الجامعة العربية .وطلب إحالته على التقاعد فكان له ما أراد واختار بيروت مكاناً للإقامة من أجل أن يُنجز ما كان قد أعدّه من كتاب الأعلام الموسوعي الذي لا غنى لأي مؤرخ أو مؤلف أو محقق أو عالم، غنىً عنه في مكتبته ...

ساعتان في حضرة شيخ المؤرخين مؤرخي العصر ، وحَبرِ الشعراء والأدباء والموسوعيين، ساعتان كانتا كافيتين لتحوّل مسيرتي في الحياة .. لقد أدركت أن الفن والجمال والثقافة والعلم والحكمة والفلسفة والتاريخ والأدب والشعر والموسيقا كلٌّ لا يتجزأ في مدرسة الحياة ..

وعلى المبدع أن يتناول ويطّلع على كل هذه المعارف المتصلة بعضها ببعض ليكون مبدعاً .

لقد تعلّمت في هاتين الساعتين الكثير الكثير ...

دخلتُ إلى دار العلاّمة الزركلي لأتناول معه الحديث عن ديوانه .. عن طباعته عن إخراجه .. عن مقاس الحرف ، وعن نوع النسخ الذي يرغبه ، وكان يفضِّل حرف النسخ (المونوفوتو) في تنضيد ديوانه، وعن الفواصل والعناوين ونوع الورق والتجليد وما إلى ذلك من شؤون الطباعة والفن .. وخرجت من عنده وأنا أدرك أنني إنسان آخر شدّني إليه وثيق صلات وارتبطت عراه فكان ما كان ...

ما كنت أحسب أن الحرب المجنونة في بيروت ستلجئه للقاهرة ، ثم يرحل من هناك إلى بارئه مودّعاً بناته وابنه الدكتور غيث .

وظلّت مسودات الديوان بين يديّ ... وأنا بين بيروت ودمشق ، وكم كنت أرغب أن يطّلع على ما أنجزت من ترتيب ومن اختيار الفواصل ، ولكن القدر عاجله فلكلّ أجلٍ كتاب ...

ومضت بضع سنين ، وقيّض الله الناشر الذي ينشر ديوان الزركلي، واتصل بي ابن عمه الشاعر الشامي الدمشقي صاحب ديوان دنيا على الشام وكانت تربطني به صداقة ، ويأتيني صباحاً باكراً من دارته بجانب جامع الروضة يطوف دمشق كلَّ صباح ويتناول عندي كأس زهورات من تحويشة شاميّة من زهر النارنج والبابونج والختميّة والورد...

وتناولنا حديث ديوان الزركلي ، ودفعناه إلى المطبعة وأشرف معنا الأستاذ العلاّمة الموسوعيّ أحمد راتب النفّاخ على ضبط الديوان ... وكم كنت أرغب أن يكون على عينه ولكن الله شاء ولا مردّ لمشيئته أن يكون في مستقرّ رحمته .

لقد كان رحمه الله دمث الأخلاق ، خفيف الروح ، حلو الحديث ، بارع النكتة ،سريع البديهة ، عصبيّ المزاج ، نقل تاريخ أمته بصدق وأمانة ، وصوّر ببيانه الرائع الساعات الأولى لتخاذل حكومة الملك فيصل يوم اعتلى عرش سورية ووقع في حيص بيص حين خنع لأمر غورو واستجاب لأمره ، وكان خطؤه الكبير يوم أمر بتسريح الجيش الذي أعقبه الاحتلال .. كما حدث في عراقنا الحبيب اليوم .

استمع إليه وهو يصف ويسطّر الحالة التي مارت في تلك الآونة والتي لن تجدها في كتاب أو مذكرات لمن نقل أحداث تلك الفترة من مؤرّخي مطلع القرن العشرين ....

استمع إلى سحر بيانه وهو يصف ويرصد الأحداث التي أعقبت تسريح الجيش فيقول :

«رحماك اللهم ربي !...ورأفتك بأمّةٍ أسلمت زمام المقادير إلى زعماء خبطوا خبط عشواء ،وقادة حُطّابِ ليلٍ، ونُذُرِ ويل ، تقحّموا بها مجاهل الأمور على غير هدى، تسيّرهم الأهواءُ والنزعات ،وتلعب بهم الأغراض والترّهات ، طالب منصب ، وعابد درهم وعاشق تاج !.. لا يبالون من أيّة الطرق كان لهم يبتغون ، أو يكون ...

قضي الأمر ، وأراد التردد والضعف وعمى البصيرة أن تتّفق وزارة الشام مع ملكها فيصل بن الحسين على تسريح الجيش إجابة لرغبة القائد الفرنسي الزاحف على بطاح ميسلون ، ونزولاً على حكمه، واستشعر أهل دمشق في حكومتهم إذعاناً للطارق الداهم ...

فأنفوا الاستسلام ، وأبوا إلا أن يتركوا أثراً من الدم في صحيفة ذلك اليوم ... فثأروا... واضطرب المتربّعون على كرسي الحكم في دمشق ، فعمدوا إلى قمع الثورة بالعنف ، فسادت الفوضى ظلام ليلة ٢٠ /٢١ يوليو تموز ١٩٢٠ ...... وأقبل الجند المسرّحون منتشرين في أحياء دمشق ، يهتفون للاستقلال والدفاع تحت رصاص الرشاشات التي كان يطلقها رجال الأمن في المدينة ... وانصرف الغوغاء إلى نهب ما في مستودعات الحكومة من أرزاق وذخائر، وعتاد ، وأصبح الناس في فجر يوم الخميس ٢٧ يوليو والقتلى ممددة في الشوارع والأزقة ، والجرحى محمولون إلى بيوتهم والمستشفيات ..

ذلك حديث الأهالي ... وأما الحكومة وكبيرها الملك فيصل ، فقد حسبت أنها أحسنت الصنع بتفريق ما كان مجتمعاً لها من قوة الجيش ، وسارعت إلى إعلام المعتمد الفرنسي في دمشق (الكولونيل كوس) بقبولها ما أراده الجنرال غورو ، إلا أنها لم تلبث أن تلقّت جواب خطابها على غير ما كانت تخال ... كان الجواب تقدم القوة الفرنسية المعسكرة في (مجدل عنجر) على مقربة من رياق إلى الشرق ، وعلمت الحكومة حكومة الملك فيصل أن زلفاها من المغير لم تعد تنفعها .. فبادرت إلى استماع ما يقوله الملك .. فإذا هو الحرب»..

تلكم هي صورة من تصوير حدث بقلم مؤرخ أديب شاعر .. تذوّق جمال اللفظة ،وعشق سحر الكلمة والعبارة بالرغم من هول الحدث ..

وذلكم هو الشاعر الأديب الذي أكرمني القدر بالجلوس في حضرته أواخر حياته وقد بلغ الثمانين..

استمعت إليه وهو يقرأ بعض أبيات من شعره ، فبانت لي الفصاحة ...فصاحة النطق واللفظ والترويد والترجيع.. عرفت كيف تكون قراءة الشعر وكيف تميز على النثر ، ولكلٍ مقام ولكلٍ قراءة ....

عرفت كيف تتحول الكلمات إلى صورة مرسومة بريشة فنان عبقري من خلال نفثات الروح الهيمى ،وعرفت كيف تختلف قراءة القصيدة الوطنية عن العاطفية عن الغزلية ...

تشجّعت وقرأت أمامه بعض الغزل من شعري لأستثير فيه كوامن الماضي .. فإذا به يبتسم ويقول ... آهٍ من نفثات الشعر ... ثم أنشدني :

عَبَثَت ببُردَتِها النسائمُ فاشتكت أعطافُهـــا وتـــورّدَ الخـــدّان
وتمايلـــت نـــشوانةً وأمامهـــا نهـــدانِ رجراجـــان نـــشوانان
خالستُها النظرات يطمعني الهوى بحـــديثها ولكـــلِ قـــولٍ ثـــان
وأبـــى عـــليَّ تعلُّقـــي بـــدلالها إلاّ الـــدنوَّ ، ولم أكـــن بالـــدّاني
فتلفّتـــت كـــالريم ، لم تبـــسم ولم تعبس، تُطيل إليَّ النظر نظرة راني
قالـــت لـــصاحبةٍ لهـــا : أترينـــه مِمَّـــن تدلَّـــهَ بي ؟ فقلـــتُ : أراني
قالت:سبيلك، قلتُ حيث سريـتِ قالت : أتشغَلُنا ؟ فقلت عساني
قالت: أطلتَ فقلتُ : لستُ بمقصّرٍ قالت « تنحّ، فقلتُ : طابَ مكاني
فتحوّلـــت ، وتتبَعَتهـــا نظـــرةٌ منّـي ، فعـادت عـودة الغـضبانِ
وإذا بـــأترابٍ لهـــا اســـتبطأنها فأحطن بي ، فرأيت حورَ الجنان
وتركنني فكـأني استيقظت مـن حُلُـمِ ، ولم يُطِـق الكـلامَ لـساني

* * *

كان يقرأ الأبيات وقد أخذته النشوة مما يقرأ وتغيّر حاله ..

وقلت : ما الذي أبعدك عن هذا الغزل الرفيع إلى جذاذات الحزن و الأسى في التاريخ والأدب وتراجم الأعلام .. لقد أحييت في هذه القصيدة روح عمر بن أبي ربيعة في صوره ومغامراته ورحلاته ... وهو الذي يقول :

أكـــما ينعتنـــي تبـــصرنني عَمـــرَ كُـــنَّ اللهَ أم لا يقتـــصد
فتـــضاحكن وقـــد قُلـــنَ لهـــا حَـسَنٌ في كـلّ عـينٍ مَـن تَـوَد

ولهـــا عينـــان في طـــرفيهما   حَـوَرٌ منهـا وفي الجيـد غَيَـد

وأتيت بروح الحلّي صفي الدين في حواريّته التي غناها محمد عبد الوهاب : قالت :

قالـت : تـشاغلت عـن محبتنـا   قلـت : بفـرط البكـاء والحـزَنِ

قالت : أذعت الأسرار قلت لها   صَـيَّرَ سرّي هـواكِ كـالعلن

فابتسم معلقاً ... سقاها الله أيام الشباب ... أيام نرنـو لنصبح في عـداد الـشعراء .. ومـن لم يتـذوق الحـب ويعـرف طعـم الجـمال فلـيس بـشاعر ... لا بـد للـشاعر حتـى يكـون شـاعراً مـن أدواتٍ ومـسوّغات ومحفّزات ، ولا بدّ له أن يطرق جميع الألـوان والأبـواب، لا بـدّ للـشاعر أن يعيش حياته ويتفاعل مع واقعه الذي يعيش فيه ..

كنـا شـباباً نـستمع ونـستمتع ... وكانـت الأناشيد في حـبّ الـوطن تطرق أسماعنا من غير استئذان ، وكنا نقبس من الـتراث الـشعبي لنـصوغ قدّاً على القدِّ ونهيم من الموشح ، ونقلّـد الأنغـام في تردادهـا ... وأذكـر الأغنية الشعبية الشهيرة التي كانت تتردد على ألسنة الصبايا في زماننا :

الحنّة ، يا حنّة يا حنّة ، يا قطـر النـدى

يا شباك حبيبي يا عيني ،غلاّب الهوى

فنسجت على لحنها ومغناها :

بـــلادي لحبـــك في أضـــلعي   هوىً جزت فيه حـدود الهـوى

يحيّيـــك قلبـــي فحيّـــي بـــه   فـؤاداً كـواه الجـوى فـانكوى

* * *

عشقتك في المهد عشق الهُيام وَدَلّهني حُبكِ المُسكِرُ
سكرتُ ولم أدرِ طعم المدام وحبك يسحر أو يُسكِرُ
فأنتِ المنى في منى والصفا وأنتِ التي أبتغي في اللِوى

* * *

لبغداد والشام والقاهرة وصنعاء والمغرب المؤنِسِ
وبِيدِ تِهامةَ والحاضِرة ونجدٍ ومن حلَّ في تونُسِ
هوىً دائم في ثنايا الحشا وحبٌّ سقَتهُ النّوى فارتوى

* * *

خرجت من دار الزركلي أبي غيث نشوان سكران، والرّعدة تهزّ كياني ،...

يومها ما كنت أدري أن الزمن سيسلبني أجمل لقاءات كانت ستحلّ، وخطّطتُ لها في مخيّلتي لأتتلمذ على هذا العلم العالم الجبل الشامخ.... فقد عثرت على كنز من الأدب والمعرفة قلّ مثيله. .. على شاعر رصين حكيم فيلسوف مؤرخ ندر وجوده ومثيله....

وأنا اليوم أصدقكم القول ، بالرغم من صداقاتي وعلاقاتي مع كبار الشعراء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة والآثاريين الذين جالستهم وكانوا عظماء في ذاتهم ..

أصدقكم لم أرَ مثل الزركلي رجلاً موسوعياً مليئاً بالعلم الذي لا ينضب ، تنهل فيه وتغرف من أيّ فنٍ شئت ، دون عناءٍ أو بحثٍ أو سؤال ...

لقد عرفت شاعر الشام شفيق جبري وكانت لي معه صلات وأمضيت أياماً وشهوراً في دارته في بلودان ، وكنت أرتب له مسوّدات شعره في سبيل النشر ،واختطفه الموت قبل أن يحقق أمنيته وأمنيتي في طبع ديوانه الذي صدر فيما بعد عن مجمع اللغة العربية بلباسٍ رثّ ، لا يليق بشاعرٍ كبيرٍ كشاعر الشام ...

وعرفت الشاعر الملهم الدبلوماسي عمر أبو ريشة ، ونزار قباني، وسليم الزركلي ، وحسن البحيري ، وأحمد عبد الرحمن المعلّمي ، والموسوعي عبد الكريم اليافي، والآثاري عدنان البني، والصحفي عبد الغني العطري ، وشيخ الوراقين أحمد عبيد ، وزهير الشاويش ، وغيرهم وغيرهم كثير ... وكلهم كانوا يحطّون رحلهم في مكتبي الذي كان ملتقى الأدباء والشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة والمؤرخين وصفوة المجتمع .... وبالرغم من كل ذلك لم استمتع قدر استمتاعي بالساعتين اللتين جلست فيهما بين يدي الزركلي خير الدين ....

لقد فتّح بصري وبصيرتي فرحمك الله أبا غيث ... ولكأني بك تقول لي:

كنتُ ولي من صبوتي مذهبٌ	**ولم يَدُم لي في الهوى مذهبي**
كنت إذا ما كوكبٌ لاحَ لي	**قبستُ معنى الشِعر من كوكبي**
كنت إذا ما الليلُ ألقى الكرى	**نهضتُ أرعى حَلَكَ الغيهَبِ**
وبتُّ والأيامُ خلاّبةٌ	**ومَن تخادعُه المُنى يُخلَبِ**
صارعتُ آلامي وصارَعني	**ومن يغالبه الأسى يُغلَبِ**
بتُّ أرى من معاني النُّهى	**شِقوَةَ ذي اللبِّ ونُعمى الغبي**

خيــر الدّيــن الزركــلي

د. إسماعيل مروة

جمر أشعل الرماد

صوت سورية الشعري وصاحب الأعلام
الشاعر الذي تشهى أن يعبد وطنه لو كان بالإمكان

لـيس اسـماً عاديـاً اسـم خـير الـدين الـزركلي، فلـم يكـن شـاعراً وحسب ،ولم يكن مصنفاً مؤلفاً فقـط، ولم يتربـع في عـالم الأدب دون أن يغـادر، بـل كـان سياسـيّاً ، شـعراً وتأليفـاً وموقفـاً طـول حياتـه، وكـان صـحفيّاً رائـداً بامتيـاز في الـصحافة العربيّـة ، حيـث أصـدر عـدداً مـن الـدوريات التّـي لم يكتـب لهـا الاسـتمرار بـسبب الاحـتلال وأحكـام الإعدام التّي لاحقته من ساعة دخول المحتلّ الفرنسي إلى سورية....

خير الدّين الزركلي ابن دمشق الذّي أحبها أكثر مما أحـبّ أي شيء آخـر في حياتـه، فـرح لفرحهـا ، تـألّم لألمهـا، وعـلى الـرغم مـن اغترابـه وحصوله على الجنسيّة العربيّة بقيت دمشق فرحته ودمعته وحياته التّـي أحبّها بكل تقلّبات علاقته معها...

وخير الدّين الزّركلي ابن دمشق أبى إلاّ أن ينسب لسوريا فضل تصنيف أهمّ معجم في التّاريخ العربي المعاصر، فكان معجم الأعلام الذّي طُبِع في دمشق بطبعته الأولى، وقد قام على طبعه سيّد الورّاقين أحمد عبيد رحمه الله.

الشّاعر السّوري – الصوت السّوري:

إن من يقرأ في كتب التاريخ خاصّة في مرحلة عصر النّهضة وما تلاها يجد أن أغلب المثقّفين العرب في سوريا ولبنان تركوا البلاد وتوجّهوا إلى القاهرة للإقامة فيها بسبب بطش القوّات العثمانية على هذين البلدين لقربهما الشّديد من تركية، بينما كانت مصر منذ ولاية محمّد علي باشا تعيش ما يشبه الحكم الذّاتي في الدّولة العثمانية مترامية الأطراف، ومن هؤلاء الذّين رحلوا أبو خليل القبّاني وعبد الرحمن الكواكبي وجورجي زيدان، وميّ زيادة وغيرهم كثيرون، وأسسّوا في مصر نهضة أدبيّة عالية المستوى وصارت مصر تفاخر بهم ،وتفخر على العرب بأدبائها من محمود سامي البارودي إلى حافظ وشوقي والرافعي وغيرهم.

وقارئ التّاريخ يجد أن الأدب العربي شعراً ونثراً وقع تحت قبضة الرؤيا المصريّة، وتحوّل الأدب العربي إلى تابع للجغرافية المصريّة.. ومع بروز أصوات الشعراء مثل خير الدّين الزركلي ومحمّد البزم وشفيق جبري وخليل مردم وعمر أبو ريشة وبدوي الجبل ونزار قبّاني صرنا نسمع عن خصوصيّة الشّاعر السّوري – الصّوت السّوري، وكانت الأسماء الأربعة الأولى صاحبة الفضل الأول في التّأسيس ،وتحمّلت الأعباء الكبيرة من أجل الحصول على التفرّد في الصّوت السّوري

والصّورة الشعريّة الخارجة من قلب المجتمع السّوري... وخير الدّين الزركلي عمل كثيراً على هذا الأمر حتّى صار لسوريا شاعرها الخاص وصوتها. وعن ذلك يتحدّث الشّاعر الرّاحل أحمد الجندي في كتابه الجميل شعراء سوريا فيقول: لقد كان في خير الدّين الزركلي لسوريا شاعر، إنّه شاعرها الخاص وكانت في ما سبق تعتمد في أحداثها على شعر حافظ وشوقي المصريين، وشعر الرّصافي والزّهاوي العراقيين، وشعر بشارة الخوري وشبلي الملاط وخليل مطران اللبنانيين، فخير الدّين الزركلي إن لم يكن أول الشعراء السوريين بصوته ونكهته فهو من الأوائل الذّين أسسوا لخصوصية شعرية سوريّة.

خير الدين الزركلي ودمشق الحبيبة:

وُلدَ خير الدين الزركلي في بيروت لأبوين دمشقيين في وقت لم تكن الحدود الفاصلة بين الولايات قادرة على ما نراه اليوم من فصلٍ حاد، عاد إلى دمشق ،ورجع إلى بيروت ، وعاد إلى دمشق ، سافر إلى عمان ، أقام في القاهرة ، استقر في السعودية ، لكنه في الأحوال جميعها كان الدمشقي المتجذر في دمشق ، العاشق لها في حسنها وجمالها ، الراثي لحالها في الألم والحزن .... لم تبرحه دمشق في أي لحظةٍ من لحظاته ، ولم تغادره في أي سكنة من سكناته ، وانطلاقاً من تميز صوته السوري يتحدث الأستاذ أحمد الجندي ، كما يفعل ذلك الدكتور سامي الدهان في كتابه الرائد (الشعراء الأعلام في سوريا) عن شعره في سورية ودمشق مقابل ما كان يُنظم من شعر شعراء غير سوريين في الأوقات نفسها ، ويتجرأ الأستاذ الجندي بعلمية على الموازنة بين عاطفة شوقي في رائعته (نكبة دمشق) وعاطفة الزركلي في قصيدته (بين الدم والنار)

ونحن هنا لسنا في مجال المقارنة ، لكننا نعرض بعض أشعار الزركلي في دمشق والتي نرددها ، والكثيرون لا يعلمون أنها للزركلي ، والزركلي يفخر بانتمائه حين يقول:

قالت: أمن بطحاء مكّة جارنا — قلت: الهناء لمن دعوت بجارك

أنا من دمشق، وقد ولدت بغيرها — وسكنت أخرى، والحنين لدارك

أما قصيدته الوطنيّة الموفقة والتّي تركت أثراً لم يتركه شعر آخر، فهي القصيدة الرّائيّة ،والتّي ألقاها في مصر كما يذكر الدّكتور سامي الدهان نقلاً عن الكتب التي أرّخت للمرحلة، ففي حفلة لإعانة المنكوبين أقيمت بمصر ١٩٢٦ تبرّع فيها كرام العرب بمصر لإخوانهم في الشام ، أنشد شوقي قصيدته السائرة القافيّة (سلامٌ من صبا بردى أرقّ ..) وأنشد الزركلي قصيدة كانت موفّقة في روعتها وصدقها ووصف الفاجعة، افتتحها بقوله:

الأهل أهلي والديار دياري — وشعار وادي النيربين شعاري

وهذه القصيدة قيلت بعد ضرب الفرنسيين دمشق بالقنابل، ومنها نختار هذه الأبيات:

ما كان من ألم بجلّق نازل — واري الزناد فزنده بي واري

دمعي لّما منيت به جار هنا — ودمّي هناك على ثراها جاري

النّار محدقة بجلّق بعدما — تركت حماة على شفير هار

الطّفل في يد أمة غرض الأذى — يرمى وليس بخائضٍ لغمار

صبرت دمشق على النكال لياليا — حرم الرقاد بها على الأشفار

أما قصيدة الزركلي الدّامية الدّامعة فهي قصيدته نجوى التّي تعبر عن أحاسيس السوري المنتمي إلى وطنه خير الانتماء وهو يتشوّق إلى وطنه بعد أن صار بعيداً عنه:

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريّانةٌ بالدّمع أقلقها ألاّ تحسّ كرىً ولا وسنا

هاتان القصيدتان وأمثالهما في ديوان الزّركلي تظهران بما لا يقبل الشكّ تمسّكه بوطنه وحبّه له إلى درجات تفوق الوصف إحساساً وانتماءً وفكراً.

الأعلام أهمّ معجم عربي معاصر:

في دراسته عن الزّركلي يأسف الأستاذ أحمد الجندي لأن الشاعر انشغل بالتأليف ويرى أن الشاعر يجب أن يخلص لشعره وحسب، والزركلي بنظره شاعر مهم جدّاً وكان من الممكن أن يعطي شعراً أكثر وأفضل لو أخلص للشعر لكن الحقيقة تقول غير ما يقول الأستاذ الجندي، فاسم الزركلي يتردد في كل مكان، ولا غنية لأي باحث أو دارس أو مثقف عن كتابه الموسوعي الأعلام.

إن موسوعة معجم الأعلام للزركلي استطاعت وبجدارة أن تأخذ مكان الصدارة في المكتبة العربية الحديثة ولو أراد الباحث أن يكون منصفاً فإن كتاب - الأعلام - واحد من أهم عشرة كتب صدرت في القرن العشرين باللغة العربيّة إن لم يكن أهمّها على الإطلاق وذلك لعدّة أسباب أوجزها بما يلي:

١ - توقّف التصنيف في التراجم العربية منذ زمن، واعتمادنا على الكتب الوافدة.

٢ - استيعاب موسوعة الأعلام للأعلام منذ القدم وحتّى الوفيات الحديثة إلى زمن الزركلي.

٣ - تغطيته لحقبة زمنية معاصرة لا تسعفنا الكتب الأخرى بمعلومات حولها.

٤ - عدم اقتصاد الزركلي على العرب، بل استوعب المستشرقين.

٥ - تغطيته لجانب المرأة العربية والترجمة لها.

٦ - وجود نماذج من الصور والرسائل والخطوط التّي نفتقدها في الكتب العربية المماثلة.

٧ - سهولة التعامل مع كتاب الأعلام.

٨ - التطوير المستمر للمعجم، إذ لم يكتفِ الزركلي بإعادة الطباعة سنويّاً.

وإنما كان يطبع عدداً محدوداً من النسخ ، ثم يقوم خلال العام بإضافة التراجم الجديدة الممكنة، ويضمّها إلى الطبعة الجديدة، ولهذا بدأ الكتاب بثلاث مجلّدات، وانتهى بعشر مجلدات ضخمة . ويمكن أن نتعرف إلى قيمة ما قام به الزركلي في هذا الكتاب إذا ما نظرنا إلى مرحلة ما بعد رحيل الزركلي، إذ حاول عدد من الباحثين الأفاضل أن يصنعوا تتمات لموسوعة الأعلام، وصنعوا لكنّهم لم يستطيعوا أن يجاروا منهج الزركلي وحياديته العلمية وقرأنا مقالات مطوّلة تنتقد أعمالهم ولعل أقربهم إلى منهج الزركلي ما صنعه الدّكتور نزار أباظة وزميله من حيث المنهج والحجم والحرف .

ويبقى كتاب الأعلام علامة من علامات التصنيف في القرن العشرين.

ومن علامات الزركلي الفارقة ،والباحثون يعرفون أن هذا الكتاب لا يذكر إلا بقولهم أعلام الزركلي.

الزركلي وكتابة التّواريخ الخاصّة:

ربما قصد الأستاذ الجندي وغيره من منتقدي الزركلي وتأليفه هذا النوع من التأليف وإن كانت هذه التآليف مقصودة، فإنهم على حق لأنها لم تترك أثراً يذكر عند غير المعنيين مثل شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، والوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، كما يندرج تحت هذا النوع من التصنيف رواياته التمثيليّة التّي لم تكن مماثلة للفن الروائي التمثيلي مثل : ماجدولين والشّاعر، وفاء العرب، صفحة مجهولة من تاريخ سورية في العهد الفيصلي، وإذا أردنا أن نكون منصفين فمن الأفضل أن نضع مثل هذه المؤلفات في سياقها التّاريخي ،وضمن ظروفها الحقيقية، فالزركلي الذي عاش حياة متقلبة بين عدد من البلدان العربية والذّي كان محكوماً بالإعدام لفترة، والذّي كان معجباً بالملك عبد العزيز حقيقة عند ذاك يمكن أن نجد لهذا النوع من التّأليف عند الزركلي عذراً.

الزركلي والمرأة :

إن طبيعة الزركلي ونشأته جعلت نظرته للمرأة مختلفة ففي هذه النظرة الكثير من العفّة والاحترام أصلاً، وطبيعة الحياة السياسية التي يعيشها العصر العربي آنذاك حصرت اهتمام الشعراء ومنهم الزركلي في

العمل السياسي، إضافة إلى ذلك، فإن عيش الزركلي مغترباً في القاهرة ومقيماً في العربية السّعودية ترك أثره في شعره فهو يعيش في مجتمع مختلف عن طبيعة حياته الأولى، وكان من الحكمة ألا يكون شاعراً متغزّلاً إلا ضمن الحدود المسموح بها، وما نظمه الزركلي في غزله يوحي برقةٍ لا تدانى:

رويد خطاك لا تسبق خطاها — عسى اللفتات مسعدة عساها
نشقَت عبيرها تمشي الهوينا — وتنبعث النسائم من شذاها
فما كانت سوى الخلسات حتّى — تلاقى ساعداي وساعداها

الزركلي والقضايا القوميّة:

مع أن الزركلي شاعر وطني وسوري بامتياز، لم يترك شاردة في وطنه إلاّ وتحدث عنها، إلّا أنه كان صاحب إحساس قومي عالٍ، إذ تحدّث عن معاناة الشعوب العربية الأخرى وناجى البلدان العربية بأرق ما تهيأ من شعر وها هو يتحدث عن ثورة الجزائر عام ١٩٦١:

وفي أفق الجزائر وهج نار — وقود لهيبها غير الوقود
هشيم سعيرها جثث وهام — ممزقة الغلاصم والجلود
تحوم العين فيها حول دور — مرشقة بلطخ دم جميد
تفانى أهلها في الذود عنها — سراعاً بالزناد وبالزّنود

وله قصائد أخرى في السعودية والمغرب ومصر ولبنان وفلسطين.

وأخيراً:

لم يكن خير الدين الزركلي شاعراً ناظماً، بل كان شاعراً محلّقاً وكاتباً مبدعاً وممثلاً لسوريا والوطنية فيها أصدق تمثيل،

عاش لسوريا محبّاً وتنقّل في كل البلدان حاملاً شامه في روحه وضميره ووجدانه إلى أن أسند رأسه إلى تراب القاهرة مودّعاً الدنيا وعلى لسانه قوله:

إنَّ الغريب معذّب أبداً إن حلّ لم ينعم وإن ظعنا

الزركلي والانتماء الوطني:

الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النّيربين شعاري

مطلع القصيدة المؤلمة المتألّمة التي جادت بها قريحة الشاعر الكبير خير الدّين الزركلي عندما تعرّضت دمشق للعدوان على وقع نيران المستعمر الفرنسي، لم يكن خير الدّين الزركلي في دمشق عندما احترقت دمشق الحبيبة، بل كان مبعداً ومنفيّاً في القاهرة، ومن مقرّ إقامته جلس يبكي دمشق وأهله، ويصف ما حلّ بها أدقّ وصف مهما قسا هذا الوصف!

لم يشأ الزركلي أن يكون رومانسيّاً في الحديث عن وقع مأساة مدينته التّي أحبها ويحبها بل كان واقعيّاً ومتألما ...فالأوطان حين تتعرّض للأخطار ليس لها سوى أبنائها، فهم القادرون حقّاً على الدّفاع عنها، وهم الذين ينقلون مشكلاتها وهمومها ومعاناتها إلى العالم الخارجيّ، خاصّة في حقبة العشرينيات من القرن الماضي حين كانت وسائل الإعلام محدودة وغير قادرة على نقل الصّورة الحقيقيّة.

خير الدّين الزركلي والشعراء الذين عاشوا تلك الحقبة حملوا همّ الوطن وكانوا جديرين بحمله، لم يكسبوا أي نوع من المكاسب، ولم يجنوا من خيرات الوطن سوى ما نهلوه من حليبه وأرضه وهوائه...

خرجوا من أوطانهم محبّين قادرين على الحبّ...

جابوا الأرض لنقل حقائق ما يجري على أرض الوطن..

كسبوا الرأي العام العربي والعالمي، وحصلوا على تأييد العرب لقضاياهم عدا ما قدّموه لوطنهم المنكوب من عطاءات عينيّة وماديّة.

عند الزركلي وطبقته من الشّعراء والوطنيين لم يكن الوطن بقرة حلوباً يأخذون منها ما يريدون، بل كان الوطن طفلاً صغيراً بحاجة إلى الرعاية والحماية من كل مكروه، ويقطعون عن أنفسهم لأجله، ويعطونه نتاج عملهم علاوة على نتاج قرائحهم وفكرهم.

قد تكون الوقفة مع شاعر كخير الدين الزركلي عادية، لكن الشّاعر وما يحمله من مواصفات حوّلها من وقفة عادية إلى وقفة غير عادية، وغير تقليديّة، خاصّة وأن الوطن لا يزال ينجب الأبناء، ولا يزال عرضة للأخطار فهل نصل إلى هذه الأخلاقيات الوطنية المميزة بكل ما فيها؟!

هل نستخلص من سيرته الطريقة المثلى في حبّ الوطن؟!

ففي الوقت الذّي نرى الوطن في عيون عدد من أبنائه كنزاً ينهبونه دون رحمة، وعندما يصبح خاوياً يردمونه بالحجارة ،يأتي إلينا الزركلي الذّي عاش حياة المنافي والحرمان والتشرّد ليقول:

ليت الذّين أحبهم علموا وهم هنالك ما لقيت هنا

لو مثّلوا لي موطني وثناً لهممت أعبد ذلك الوثنا

طب نفساً أيها الشاعر الكبير،

فالشّام التّي كانت صوتك وحبّك لا تزال...

وأشعارك التّي نثرتها على دروبها صارت أغنية للأوفياء المنتمين.

مختارات من ديوان الزركلي

اختيار: خلود أحمد رسول

كم يشق عليّ أن أقدم لديوان شقيق الروح خير الدين الزركلي ، وكان حريّاً أن تكون مقدمة الديوان بقلمه ، وكم كان حريصاً على أن يُطبع ديوانه على عينه ، فيقدم له بذاته ، لأنه أخبر ببواطن ما أودع هذا الديوان ، من رائع الشعر ، وبديع المعاني ، ولكن كانت مشيئة الله وقضاؤه ، ولا راد لحكمه .

خير الدين لم يكن ابن دمشق وحدها ، بل كان ابن سورية ، ابن بلاد الشام ، ابن الجزيرة العربية . ابن الوطن العربي الكبير ، ابن الأمة العربية.

حمل هموم أمته منذ شبّ عن الطوق ، فنافح بقلمه وفكره ومشاعره ، في سبيل حريتها واستقلالها ، وتغنى بأمجادها ، فملأ عيون الناس وقلوبهم وعقولهم .

لم يطق البقاء في وطنه ، وقد احتلته جيوش فرنسة ، فغادر دمشق ، إثر وقعة« ميسلون» في ٢٤ تموز ١٩٢٠ ،إلى فلسطين فمصر فالحجاز.

وفي ٩ آب ١٩٢٠ صدر حكم المجلس العسكري الحربي ، باسم الأمة الفرنسية ، بإعدامه مع نفر من إخوانه ، سياسيين ووجهاء وأدباء وصحفيين ، ومصادرة جميع أملاكهم (حيث ثبت أن المذكورين استعملوا التدابير المادية وقواهم العقلية ، بمعاضدة أعداء الحكومة الفرنسية)فتجنس بالجنسية العربية في الحجاز عام ١٩٢١ ، وانتدبه الملك حسين بن علي، لمساعدة ابنه الأمير عبد الله . وهو في طريقه إلى شرقي الأردن ، فعاد في جماعة من إخوانه ، وساهموا في إنشاء الحكومة الأولى في عمان فسمّي مفتشاً عاماً للمعارف ، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة ١٩٢١ -١٩٢٣.

وفي خلال هذه المدة ، أوقفت السلطات الفرنسية تنفيذ الحكم بحقه ، فعاد إلى دمشق ليصطحب أسرته إلى عمان ، وأرسلت إليه السلطة الفرنسية بعض أصدقائه من الوزراء ، ليقنعوه بالبقاء في دمشق، فرفض أن يبقى ، مؤثراً حياة الاغتراب عن بلده الذي أحبه ، على البقاء في جحيم الاحتلال

ولما نشبت الثورة في سورية عام ١٩٢٥ ، على الاحتلال الفرنسي ، أذاع الفرنسيون حكماً ثانياً بإعدامه ، لنشاطه في تغذية الثورة ، ومؤازرة المجاهدين.

وفي عام ١٩٣٤ عين مستشارا للمفوضية العربية السعودية في القاهرة ،وأخذ يلي أعمالا سياسية للمملكة ، فكان أحد مندوبَيها في مداولات إنشاء جامعة الدول العربية ، وتوقيع ميثاقها.

وانتدب في عام ١٩٤٦ لإدارة وزارة الخارجية السعودية بجدة ، بالتناوب مع صديقه المرحوم الشيخ يوسف ياسين ، وفي عام ١٩٥١

سمي وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً للمملكة ، لدى جامعة الدول العربية بالقاهرة.

وفي عام ١٩٥٧عُين سفيراً للمملكة العربية السعودية ، لدى المملكة المغربية ، فظل فيها عميداً للسلك السياسي حتى عام ١٩٦٥. حين اعتلّت صحته ، فأذن له جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز في الإقامة ببيروت ، على أن يظل برتبة سفير في وزارة الخارجية السعودية حتى أواخر أيامه.

وكانت ولادته في بيروت ليلة ٩ ذي الحجة ١٣١٠ هـ (٢٥ حزيران ١٨٩٣ م) من أبوين دمشقيين حيث كانت لوالده محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي تجارة فيها ، ووفاته في القاهرة ، يوم الخميس ٣ ذي الحجة ١٣٩٦ هـ و ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٦ م.

هذا هو خير الدين الزركلي الرجل الذي قطع مراحل حياته بين اليأس والأمل ، بين الخيبة والرجاء ، بين ضيق العيش وشظف الحياة ، وبين سعة العيش ورغادة الحياة ورفاهيتها، وهو ما بين كل ذاك المجاهد المصابر ، يتطلع من كل فجوة ويتفحص كل ثغرة ، عسى أن تهب رياح المستقبل الزاهر لأمته المغلوبة على أمرها.

ولن أتعرض لخير الدين الشاعر ، فإن بين يدي القراء ، كل ما منح من معين شاعريته الفياضة المبدعة ، الصادقة مع نفسها ، المؤمنة بقيمها الإنسانية ، وطنية كانت أم اجتماعية ، قومية أم سياسية ، خلقية أم عاطفية ، ولكل قارئ أن يتفهم بمقاييسه الخاصة ، ما أبقى لوطنه الكبير ، ولأمته العظيمة من تراث عبقري جوال.

وإني - على ما أحس به من ضيق وحرج - لذاكر خير الدين من خلال الكلمات التي أجاد فيها المتحدثون ، ليلة الاحتفال بذكراه ، بعد أن مرّ جزء يسير من الزمن على انطفاء شعلته ، وانكفاء جذوته ، واستقراره في مطاوي الماضي ، وعلى شرفات الخلود.

يقول الدكتور شاكر مصطفى في كلمته التي وضع لها عنواناً يتأرجح بين الحقيقة وبين الخيال«القنديل الأخير»:

«وفي الشعر .... في الشعر كان الزركلي في الصف الأول ، من قناديل تلك الأيام الأولى ، الدفعة الشعرية التي غذت نهضة العرب بالقوافي ، في الربع الأول من هذا القرن . وكان أسياد المنابر فيها الرصافي وشوقي وحافظ والزهاوي وإسماعيل صبري. كان فيها للزركلي منبر أيضاً ، رغم شبابه الغض : فاتحاً دخل ندوة شعراء النهضة أولئك ، وسيداً من أسياد القافية ، أخذ مكانه بين أبناء عبقر المنتشين ... وكل ما عرفه الناس عنه يومذاك ، أنه نبتةٌ عربية أصيلة نبتت ، ما كان يعرف أي لغة أخرى يوم قال الشعر .... ولا أي مذهب من مذاهبه ومدارسه ، وما يسطرون . الكتاتيب ، ثم كتب العرب ، وعلماء دمشق، ودواوين التراث ، كانت عدته ، فإذا هو انطلاق على البحور ، وقافية مطواع ، ولغة أطوع ... الشعر ، هذا اللص الأزلي الذي يسلب العرب حلومهم منذ الأزل ، كان يتنزل على لسانه كالحديث العفوي ، وفي الشام حيث الكلمة الحلوة عبادة ، وحيث الأقانيم القومية قدس الأقداس ، وحيث يعرض بردى ويعرض ليماشي النيل والرافدين ، ويغرر ، وهو الساقية المسكينة ، ليصبح النسغ القومي للملايين ، لابد للشاعر أن يفهم هذه الأبجدية الشامية ، ليكون شاعر الجماهير ، وشاعر القضية ، ولقد فهمها الزركلي ، كأحسن مايكون الفهم».

ويأتي في كلمة الدكتور شكري فيصل التي ألقاها في حفل التأبين وموضوعها« نثر الزركلي» قوله:

«لم يكن الزركلي موصول النسب بوادي عبقر وحده . هذا الذي كانت تسكنه شياطين الإلهام .... لم يكن أسيراً له ، ولا صنيعةً من صنائعه فحسب ، ولم تكن ربات الشعر هي وحدها التي تضفر له أكاليل الغار ، وتزرع على جبينه الشمس ، وتمنح نظراته هذا التألق ... كانت ربات الحكمة هي التي شاركت كذلك في صياغته منذ بدايته المبكرة ، وكأنما نفخ في روحه ملكان ، المَلَك الذي زوّده بالقدرة على الإبداع الموفق في ميدان الكلمة المنظومة ، والمَلَك الذي زوّده بالبيان المشرق في ميدان الكلمة المنثورة».

« إننا نؤخذ حين نقرأ شعر الزركلي ، ذاك نمط من رفيع البيان ورائع التصوير ونيّر الأداء ، لم يبق من القادرين عليه إلا القلة . إنه أحد هؤلاء الذين صاغهم وصفاهم لهب نهضتنا (شعراء سورية).

والظاهرة البارزة عندهم ، ولا نكاد نجدها عند غيرهم ، أنهم أوتوا الموهبتين : موهبة الشعر وموهبة النثر ... وإنها لظاهرة توشك أن ترى أشد وضوحاً في هذا القطر الشامي...» .

« ويبقى أن وجه التميز والإبداع في نثر الزركلي لشدَّ ما يبدو أكثر إشراقاً ، حين تجد في قاموسه«الأعلام» أن أسطراً معدودات يكتبها عن صاحبه الذي يترجم له ، تأتي ملمّةً بحياته ، محيطة بها ، جامعة لأحداثها، مُضيئةً لجوانبها ، من خلال فكر نيّر ناضر ، وأسلوب قوي سمح ، وعرض منطقي متماسك ، وعبارة هي إلى روح الشعر أقرب.».

ولنعد الى الدكتور شاكر مصطفى حيث ينتقل بالكلام عن خير الدين الزركلي ، إلى موضوع آخر فيقول :

وأما التاريخ ، فللزركلي فيه قصة أخرى ، هو نفسه كان يعرفها جيداً ، وإن لم تكن فصولها الكاملة معروفة للناس ، وكان يعرف ماذا يفعل ، وإن كان الكثيرون لا يعرفون قيمة هذا الذي يفعل : يجمع الجذاذات، وينظم الأوراق ،ويضيف الحواشي ، ويذيب النظّارات في المخطوطات ، ويضيف ورقة هنا وكلمة هناك ، سنين بعد سنين ، فلا العمل في اعتقاده انتهى ، ولا الأكثرون ، حتى من الأقربين ، كانوا يفهمون أبعاد ما يصنع . فلما طبع الكتاب الذي اجتمع له ، الطبعة الثانية الكاملة سنة ١٩٥٧ في عشر مجلدات ، كتب في مطلعه :« هذا انتاج أربعين عاما أمضيتها في وضع الأعلام...».

وقد أضاف إليها بعد ذلك عشرين عاما أخرى ، ومجلدين آخرين، وتمنى في أيامه الأخيرة أن يتابع عملَه مَن يتابع .... ماذا كان يصنع الزركلي ؟

« أحد أصهاره قال له مرة : لو كتبت كتاباً من هذه الكتب الدارجة ، التي يقرأها الناس بسرعة كل يوم ... أما كان أجدى وأوسع سمعة ؟ فقال له :

وهل تذكرت أنت أسماء هؤلاء الذين يلقون كتبهم للناس في كل يوم ؟ كتابي هذا سيذكرني به الناس ألف سنة.

«وصدق الزركلي المؤرخ العالم ! لقد كان يراهن على العمل الخالد. كان يعرف ما يجهله الكثيرون من أنه هو الحلقة الأخيرة في سلسلة من المؤرخين الدمشقيين عمرها بدورها ألف عام...

«بلى ، هو القنديل الأخير في تلك المجموعة الدمشقية التي بدأت تسجل تراجم العلماء في دمشق ، وفي التاريخ الإسلامي كله ، منذ عشرة قرون حتى الآن ، وبدون انقطاع ، إلى أن جاء الزركلي أخيراً»...

ويهمني أن أتوّج هذه المقتطفات ، بكلمات قالها فيه صديقه وزميله الأستاذ شفيق جبري – أمدَّ الله في عمره – وقد سماه« حامل لواءِ الشعر والجهاد»:«لقد قصدت أمراً غير الصداقة وغير الأخوة ، قصدت الإشارة إلى اهتمام خير الدين بالشعر ، فقد خُلق للشعر ، وخُلق الشعر له ، خلقه الله شاعراً من أول حياته ، ففي قامته المديدة ، وفي عينيه الناطقتين . وفي عذوبة حديثه إذا حدَّث ، وفي شدة غضبه إذا غضب ، وفي حلاوة رضاه إذا رضي ، وفي لطائف نكته إذا مزح ، في هذا كله برهان قاطع على امتزاج الشعر بنفسه ، فهو شاعر ملء روحه وملء قلبه ، حمل لواء الشعر في الشام ، في وقت كان عدد الشعراء فيه محدوداً ..». وقال:« لقد اجتمعت له أصالة الشعر ، ومحاسن الذوق ، وحلاوة الصور ، وسهولة الألفاظ ، وعذوبته ، لقد تجلَّت هذه الفضائل كلها في شعره ، تجلَّت في قصائده الوطنية التي فاضت محبة لدياره ، وشغفاً بوطنه ، وثورة على المعتدين عليه ، وتحريضاً على إخراجهم من ديارنا...».

ويقول المرحوم الشاعر أنور العطار – في دراسة مطوَّلة لخير الدين الزركلي وشعره – استهلها بقوله :«شاعر مجيد معاصر ، من أكبر شعراء القومية العربية ، ومن أرقِّهم عاطفة ، وأصفاهم أسلوباً» ،«ما عرفت سورية شاعراً براً بوطنه ، متعلقاً به ، على توالي المحن ، مثل خير الدين الزركلي ، الشاعر الذي حمل قيثارة العزاء في ليالي الوطن السود ، وغنّاه

أبقى الغناء وأنقاه : فما ناب« سورية» خطب ، ولا ألمت بالسوريين ملمة ، إلاَّ مسح بأطراف قلبه مواجع المنكوبين ، ومدامع المعذبين ، فهو شاعر الوطن في جهاده ومآسيه، وشعره البلسم الشافي لآلام الصابرين، وجراحات المجاهدين...».

ويقول :«هذا هو خير الدين الزركلي الذي وصل إلى مصاف العظمة، حين شعر أن حياته ملك قومه، وأن ما وهب الله له من عبقرية، إنما كان في سبيل وطنه، وفي سبيل مواطنيه.. وهذا هو الشاعر الذي أشاع الحياة في ألفاظه، والقوة في معانيه، وسكب روحه أنغاماً، يهد هد بها الوطن الجريح آونة، ويثير بها العزائم آونة، كل ذلك في أسلوب يتميز بالعمق و الأصالة، ويحفل بالإشراق و الوضوح، ويطفح برهافة الحس، ولطافة الجرس، فشعره - كما يقول«موسّه Musset» كالماسة، و اللؤلؤة، وقطرة الندى، ولكن فيها معاني النور و البحر والفجر».

« هذا هو خير الدين الشاعر البطل، الذي فاق الأبطال حين أوحى إليهم ما يفعلون، أليس الشعراء والأبطال - كما يقول «لامارتين» - من سلالة واحدة؟ إن الأبطال يفعلون أبداً ما يتصوره الشعراء...».

ثمة شيء هام يجب أن أقوله، وأن يعرفه الناس، ويتأكدوا من صحته، ذلك أن بعضهم زعم أن خير الدين، انصرف عن الشعر، حين أخذ في وضع مؤلفه الضخم«الأعلام» الذي منحه من وقته ومن ذات نفسه، مالا يقدر عليه إلاّ أولو العزم، الذين وهب الله لهم ملكة حسن

الاختيار، وقوة السبك القويم، والقدرة على الإيجاز مع الاستيعاب، مضافاً إلى كل ذلك، الدأب و الجلد و الصبر، وكثرة الأسفار، وأهلية الغوص في بطون المكتبات كبيرها و صغيرها، لا، لم يصرف خير الدين عن قول الشعر ما فرض على نفسه التقيد به من أجل«الأعلام».

فقد بقي على صلته بالشعر، بالرغم من ضيق الوقت الذي كان يتركه له توفّره على إنجاز الأعلام، ما وسعه الجهد و الطاقة، وكان يعود إليه كلما عنَّت له فكرة، أو مناسبة وجدانية كانت أم قومية أم إنسانية أم اجتماعية.

وظل على هذه الصلة يرعاها، ويعطيها من روحه ووجدانه وقلبه وعقله، ما يخّلد جيد الشعر، ويضيف إلى ما يملك منه، قصائد ومقطوعات، فيها الأصالة و الإبداع، وفيها الروعة.

لما كانت حرب ١٩٦٧ بين العرب و إسرائيل، تضرمت نيران الحقد و الغضب مضافاً إليهما التفجع والأسى في صدره، فكان نتاج ذلك قصيدة.

ولاحظ نشاط الفدائيين الشجعان من أبناء فلسطين وما كان منهم يوم معركة الكرامة في ٢١ آذار ١٩٦٨ ، فنظم قصيدة بعنوان «الفدائي».

وبعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، وقد حطم العرب معزوفة« إسرائيل التي لا تقهر» نظم قصيدة مطلعها:

يا عين أبكاك الزمان وعاد يعتذر الزمان

يصل بذلك مابين حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ...

وينتقل صديقاه الأثيران : الأستاذ سليم الجندي ، والشاعر محمد البزم ، إلى الرفيق الأعلى ، فتجيش في نفسه اللوعة والذكرى ، فينظم قصيدة يستهلها بقوله:

لمن خلفتما الميدان فقيدي لغة القرآن
لمن خلفتما الميدان والميدان للفرسان

وإبان فتنة لبنان التي ما زالت نيرانها تشتعل حتى اليوم ، وبعد خروجه من مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت ، صهرت روحه نيران القناصة ، فانفجر يردد هذه الأبيات يخاطب بها« قناصةً»:

اضرب فهذا أخوكا واطعن فذاك أبوكا
ألست قناص حيٍّ أقام فيه ذووكا
بنو عمومتك الأقـ ـربون بل هم بنوكا
سلّط عليهم رصاصاً واسحق فهم أهلوكا
ويرحم الله من إن رحمتَ ، لم يرحموكا !!

وقبل وفاته بثلاثة أيام ، وقبل أن تدهمه غيبوبة الموت ، وكان كل همه وترقبه ، أن تنفرج الأزمة في لبنان ، وقد أرهقت روحه بفواجعها وكوارثها ، كتب الأبيات الثلاثة التالية ، ودسها تحت وسادته حيث وجدتها إحدى بناته:

متى تتبرج الدنيا ويشدو هزار ربيعها بعد النجيب
وتبتسم الأزاهر في رباها معطرة الندى بشميم طيب
أما للكارثات من الرزايا ختام بين .... والصليب ؟

ويروق لي هنا إيراد الأبيات التالية من القصيدة التي ألقيتها في حفل التأبين الذي أقيم لذكراه في النادي العربي بدمشق - وكان أحد مؤسسي النادي العربي في عام ١٩١٩ – بعنوان« دمعة على شقيق الروح ، خير الدين الزركلي» واضعاً إياه في صورة القريب ، الإنسان ، الشاعر ، المؤرخ ، السياسي ، المجاهد:

أخــير الأقــارب والأبعــدين — وخير الصديق، وخير الصحاب

وسعت الرجال بحلم الحكيم — ونبل الحميم ، وفيح الرحاب

ولطف الأنيس ، وأُنس الجليس — بطول أناة ، وصبر عجاب

غذوت القلوب بحلو النشيد — ورضت العقول بسحر الكتاب

حذقت السياسة ، فن الحياة — فلست تمين ، ولست تحابي

وجبت الفقار مع الناهضين — بصدق اليقين ، وصدق الطلاب

بقلم: سليم الزركلي

من مقدمته بديوان خير الدين الزركلي

مختارات

من ديوان الزركلي

اختيار: خلود أحمد رسول

نجـوى

العــين بعــد فراقهــا الوطنــا | لا ســاكناً ألفــت ولا ســكنا
ريانـــــةٌ بالـــــدمع أقلقهـــــا | ألاّ تحــسّ كــرىً ولا وســـنا
كانــت تــرى في كــل ســانحةٍ | حُسناً ، وباتــت لا تــرى حَسنا
والقلــب لــولا أنَّــةٌ صــعِدت | أنكرتُــه وشــككتُ فيــه أنــا
ليــت الــذين أحــبهم علمــوا | وهــمُ هنالــك مــا لقيــتُ هُنــا
ماكنـــتُ أحـــسبني مفـــارقَهُم | حتــى تفــارق روحــيَ البــدنا

*　　*　　*

يــا موطنــاً عبــث الزمــانُ بــه | من ذا الذي أغــرى بــكَ الزمنــا
قد كان لي بكَ عن سواك غنىً | لا كــان لي بــسواكَ عنــكَ غِنــى
مــا كنــتَ إلاَّ روضــةً أُنُفــاً | كَرُمَت وطابَت مغرِساً وجَنَـى
عطفوا عليكَ فأوسعوكَ أذىً | وهُــمُ يُــسَمّون الأذى مِنَنــا
وحَنَوا عليكَ فَجَرَّدوا قُضُباً | مـــسنونَةً وتقـــدموا بِقَنَــا

*　　*　　*

يــا طــائراً غنّــى عــلى غُــصُنٍ | و(النيلُ) يسقي ذلكَ الغُصُنا
زِدني وهِج ما شئتَ من شجني | إن كنــتَ مثلي تعــرف الــشَّجَنا

أذكَرتني ما لستُ ناسيَهُ ... وَلَربَّ ذكرى جدَّدت حَزَنا

أذكرتَني (بردى) ووادِيَهُ ... والطيرَ آحاداً بهِ وثُنى

وأحبةً أسررتُ مِن كَلَفي ... وهوايَ فيهم لاعجاً كمَنا

كم ذا أُغالِبُهُ ويغلبُني ... دمعٌ إذا كفكفتُه هَتَنا

لي ذكرياتٌ في ربوعهمُ ... هُنَّ الحياةُ تألقاً وسنا

إنَّ الغريبَ مَعذَّبٌ أبداً ... إن حلَّ لم ينعَم وإن ظعَنا

لو مثَّلوا لي موطني وثناً ... لَهَمَمتُ أعبدُ ذلك الوثَنا

مصر ٢٠ /١٢/ ١٩٢٤

أذاكــرة

دعينــي والــسماءَ عــلى انفــرادٍ أناجي الـنجمَ يطلَعُ أو يغيـبُ
وأسأل عنكِ غاشيةَ الـدّياجي وإن تكن الـدّياجي لا تجيـبُ
أذاكـــرةٌ ليالينـــا اللّـــواتي مَضَينَ وكُلُّهنَّ هـوىً وطيـبُ
عِنـــاقٌ لا يُكـــدِّره فـــراقٌ وضـمٌّ مـثلما اتَّقَـدَ اللهيـبُ
وأنفــاسٌ لأنفــاس مِــزاجٌ تكـــادُ بِهــنَّ أوداجٌ تــذوبُ
نعمناهـــا ليـــاليَ حـــافلاتٍ بما تهـوى النفـوسُ وتـستطيبُ
وأيامــاً صــفاءُ العمـرِ فيهـا حبيــبٌ بــينَ عينيـه حبيـبُ
تُطَوِّقُنــا الــسّواعد لامــساتٍ ملامِـس لا يَقـرُّ لهـا وجيـبُ
تكـادُ ، عـلى التَّجـرّدِ نائيـاتٍ غلائلُنــا، تُطــلّ وتــستريبُ
وما تَروى الشّفاه عـلى اتـصالٍ بهــا ظمــأٌ وموردهــا قريــبُ
متابَعـــةٌ بهـــا قُبَـــلٌ حِــرارٌ لهــا مــن نــارِ قلبَينـا نـصيبُ
أ ذاكــرة « ببــشرٍ » يــومَ كنّـا ولا واشٍ هنــاك ولا رقيــبُ
بعيــداً حَيُّنـا عــن كـل حـيٍّ تُناديـنــا الحيــاةُ وتــستجيبُ

أَبَحنـا للهـوى مـا شـاء منَّـا يُقلِّبُنـا بـما تهـوى القلـوبُ
وأطلقنـا عِنـانَ اللَّهـو تجـري سـوابقُه بنـا ولهـا وُثـوبُ
وقلنـا: مَـن لـهُ عقـلٌ سـليمٌ ليَحسُد من لـه عقـلٌ سـليبُ !

الإسكندرية« سيدي بشر»
١٨ /٧/ ١٩٣٨

في سورية

دمدمَ« الشلالُ» في الغابِ ، وللأدواحِ خَفقُ
يلطِمُ الصخر ، وما بالماءِ أو بالصخرِ رِفقُ
إِن هوى مِن قِممِ الأجبالِ ، شقَّ القِمَما - مُقتحِما
أو تَرامت رُجُمُ الأفلاكِ ، فَلَّ الرُّجُمَا - مُحتَدِما

* * *

هادرٌ كالأسدِ الزائرِ، مُرغٍ مُزبِدُ
لَهَبٌ مُلتهمٌ مُحتدِمٌ مُتّقِدُ
غَلَيانٌ في نفوسٍ ،َوهِياجٌ ، واضطرابُ
ما الذي حَرَّكَ هذا اليَمَّ فامتدَّ العُبابُ ؟

* * *

ساسَ بالظُّلمِ عُتاةٌ ، أمَّةٌ ، فَزَمجرت – وانفجرَت
حُمِّلت ما لَم تُطِقهُ من أذىً ، فَزَأرَت - واستعرَت
وَبَدا مَشعَلُها ، خَطَّ عليهِ الأبَدُ :
إِنَّه الثائرُ ، لا يَقوى عليهِ أحدُ !

أغسطس ١٩٢٥

ســوريــة

نشــيد

ســـــورِيَّةٌ نحــــن لهـــــا   نحمـــــي حماهـــــا أبـــدا
نبنــــي لهـــا صرحَ الحيـــا   ة ، فــوق هامــاتِ العِــدا
سِرنـا بهـا في حَلــك الــ   ـــــليلِ ، بهـــيماً أســـــودا
تقنَّعـــــت .....نجومـــه   والـــذئبُ فيــه استأســـد
حتى إذا الصبح بدا
وانقشع الإظلام
ولاحت الأعلام
صحنا بها : هيّا

*   *   *

هيَّـــا إلى صـــونِ الــبلاد   هيـــــا بنـــــا إلى البنــــاء
المجــــد في الجــــد ، ولا   يُـــدرك مجـــدٌ بالونـــاء
هيـــا إلى نهـــج العـــلاء   إلى امتطـــاءِ الكبريـــاء
إلى الــــسنا إلى الــــسناء   هيـــا إلى شـــق الـــسماء

صيحة جيَّاش دعا

في الناسِ، لا في الأيك

هل الصدى : لبيك؟

أسمعُه ... حيّـا

دمشق ١٩١٩

عصفورة النيربين

عُصفورة النيربين غنّي
وَ اروي حديثَ الأنينِ عَنّي!
أنا المُعَنَّى ، و ما المُعَنّي
غيرُ حنينٍ ، أذابَ مِنّي
شَغاف قلبي، وَحُسنَ ظنّي

* * *

عُصفورةَ النيربينِ - نوحي!
يُضَمّدِ النَّوحُ مِن جُروحي،
لم يُبقِ لي الهَمُّ غيرَ روحي،
ما القلبُ ، ما الجسمُ ، بالصَّحيحِ !
ما بيّ عِرقٌ بمُطمئِنٍّ !

* * *

ألِفتُ شَجوي ، وعِفتُ لَهوي
فأينَ صَفوي ، وأينَ زهوي!
سَكِرتُ حتى ، نسيتُ صَحوي ،

وَمِن كؤوسِ النُّكوبِ نَشوي ،
ومِن أُجاجِ الخُطوبِ دَنّي ..

* * *

إن أهوَ ، لا أهوَ غيرَ آلي
دمي فِداءٌ لهم ، ومالي !
أحسنتُ ظنّي بِهِم ، فما لي
خابَت الأمانيَّ في الرجالِ؟
ليتَ الأمانيَّ بالتَّمني!..

دمشق ١٥ /٦ /١٩٢٠

وطنــي

يجنـي وأشـكرُ في الهـوى يـدَهُ　　وطـنٌ شـقيتُ بـهِ لأسـعِدَهُ
آليــتُ لا بالـــيتُ بي ألمــاً　　وَبـــهِ دمٌ حتـــى أضـــمِّدَهُ
يَـومي لـهُ ، وغـدي لـهُ ، هبـة　　وَعَسَايَ أحمـدُ في غَـدي غَـدَهُ
كـم ليلـةٍ سـامرتُ أنجمَهـا　　مترقبـاً في الـشرقِ فرقـدَهُ
أرعــى كواكبَهــا وأرصُــدُهُ　　مُتحجبــاً عمّــن تَرَصّــدَهُ

*　　*　　*

عَجَبي، وما عجَبي لغيريَ مِـن　　مُتوجِّــدٍ يُخفــي تَوَجُّــدَهُ
متفجّــعٍ ، متوجّــعٍ ، قلــقٍ　　يُــذكي تنهُّــدُهُ توقُّــدَهُ
يشكو، وما يشكو سوى وطنٍ　　لم يحمـلِ الإخـلاصُ مِقـوَدَهُ
إن هَـمَّ يُـصلحُ حولَـهُ خَلـلاً　　عـبسَ القـضاءُ لـهُ فأقعـدَهُ
أو شـاءَ يُطلـقُ نفـسهُ لِهـدىً　　عَـرَضَ الزمـانُ لـه فَقَيَّـدَهُ
أو هَـبَّ يجمـعُ قومَـه حَـشَداً　　نَفَــثَ العــدوُّ بــهِ فبــدَّدَهُ

*　　*　　*

يـــا عـــابثينَ بأمّـــةٍ نهـضَت	للمجـدِ ، تفنـى أو تُوَطِّـدهُ
الـشرقُ أهـرقَ بيـنكم دمَـهُ	وافتَـــكَّ مُطلَقـــهُ مُقَيَّـــدَهُ
مـــا راقنـــي إلاّ الـــزَّئيرُ بـــهِ	يهتـــاجُ أُرَّقَـــهُ وَهُجَّـــدَهُ
شـــحذَت نوائبُـــه عزائمَـــهُ	فغـــدا مُـــرَزَّؤه مُحَـــسَّدَهُ
حتـــى إذا لانَـــت عريكتُـــهُ	أقلقـــتمُ في الأمـــنِ مغمـــدَهُ

* * *

ويـــحَ الـــسِّياسةِ في تقلّبِهـــا !	يـــسلو الحلـــيمُ بهـــا تجلّـــدَهُ
جنـتِ الـسياسةُ وهـيَ خاليـةٌ	فأضـــلتِ الظمـــآنَ مـــوردَهُ
قادتـهُ باسـمِ الـدينِ مُوريَـةً	للـــشَّرِّ ، لا للخـــيرِ ،أزنـــدَهُ
نـــادَت مُغـــرِّرةٌ مثلِّثـــهُ	وَدعَـــت مُنَفِّـــرةً موحِّـــدَهُ
يـا حـاملي عَلَـم الـشِّقاقِ بـهِ	لا تحمِلـوا للـشرقِ أصـفُدَهُ !
النـاسُ، أبـصرُ في عقائـدِهِم	كـــلُّ امـــرئٍ ينتـــابُ معبـــدَهُ
لا تبعثوهـــا فتنـــةً عمَـــا	تُـــؤذي كنيـــستَهُ ومـــسجِدَهُ
لا كـــانَ لي وطـــنٌ تُمزِّقُـــهُ	ذكـــراه عيـــساهُ وأحمـــدَهُ

* * *

وَيـــلي عـــلى وطـــنٍ يُهدِّمُـــهُ	مَـــن كنـــتُ آمـــلُ أن يُـــشيّدَهُ
كم صائحٍ: وطني! حسبتُ بـهِ	كـــشّافَ غُمَّتِـــهِ ، ومنجـــدَهُ

دارت بــهِ الأيــامُ دورتَهــا وارتعتُ حين رأيتُ مشهدَهُ!
أبــصرتُهُ هــدفاً لــهُ وطنــي والــسَّهمُ بــينَ يديــهِ ، ســدَّدَهُ
تخِــذَ الولــوعَ بحُــبّ موطِنِــهِ شَرَكــاً لــهُ وبغــى تَــصَيُّدَهُ
قــالوا : بــهِ شــغفٌ بــسُؤددِهِ هيهــاتَ مــا إن ودَّ ســؤدُدَهُ
لم يهــوَ إلاَّ ســلبَ نِعمتِــهِ، وكنــوزَ فــضَّتِهِ ، وعــسجدَهُ
مــا كــانَ يطلــبُ غــيرَ مرتبــةٍ أو منــصبٍ حتــى تَقَلَّــدَهُ !

* * *

بينــي وبــينَ بنيــكَ يــا وطنــي عهــدٌ ســتَعلَمني مؤيِّــدَهُ
هذي يـدي ، ورهينَتي كبِدي والحــرُّ يُتبــعُ روحَــه يــدَهُ !

دمشق ٢٤ /٣/ ١٩٢٠

الفاجعة

على أثر وقعة «ميسلون»

اللهُ للحدثانِ كيفَ تَكيدُ بردى يغيضُ وقاسيونُ يَميدُ
وفواجعِ المَلَوَين ما لِجِراحِها كبحٌ ولا لجراحِها تضميدُ
تَفِدُ الخطوبُ على الشعوبِ مُغيرةً لا الزجرُ يدفعها و لا التنديدُ
هل في الشآمِ و أهلهِ من نابسٍ والنائباتُ لها عليهِ وُفودُ
ما في دمشقَ لِناهضٍ من عِزّةٍ وبها سُرادقُ غاضبٍ ممدودُ
بلدٌ تبوّأَهُ الشقاءُ فكلّما قَدُمَ استقامَ لهُ بهِ تجديدُ
لانَت عَريكةُ قاطنيهِ وما دَرَوا أنَّ الضعيفَ مُعَذّبٌ مَنكودُ
لَمسوا حِبالَ حقوقهم وتعلّقوا وَالحقُّ يُعوزهُ قَنَاً و بنودُ
ما تنفعُ الحُججُ الضعيفَ وإنما حَقُّ القويِّ معزَّزٌ معضودُ

* * *

لهفي على وطنٍ يَجوسُ خلالَهُ شُذّاذُ آفاقٍ، شراذمُ سُودُ!
أَبرابرُ «السنغال» تسلُبُ أُمتي وطني، و لا يتصدَّعُ الجلمودُ!

شرُّ البليّــةِ ، والبلايــا جمَّــةٌ   أن تـستبيحَ حمى الكـرامِ عبيـدُ !

* * *

مَـن للحِمـى ؟ أَيَقيـهِ مـن عثَراتِـهِ   طُـولُ الأنـاةِ ؟ وفي الأنـاةِ جُمـودُ

زُعــاؤُهُ مُتنــافرون ، وأهلُــهُ   تناظــرونَ ، ولِلعُــداةِ وعيــدُ

كـم رَدَّدوا رأيـاً لعـلَ بـهِ الهُـدى   والـرأيُ آفـةُ نُجحـهِ الترديـدُ

* * *

ورَدوا بـهِ كَـدَرَ الحيـاةِ وصـفوَها   عَبَثاً ، ولـيسَ عـلى السَّرابِ ورودُ

وتراجعـوا يَتَقَلَّبـون عـلى لَظـىً   وبكـلِّ قلـبٍ لَوعـةٌ ووقـودُ

غَلَتِ المراجلُ ، فاستشاطَت أُمّةٌ   عربيـةٌ ، غَـضَباً ، وثـارَ رُقـودُ

زحفت تَذودُ عن الديارِ ، ومـا لهـا   مـن قُـوَّةٍ ، فَعَجِبـتُ كيـف تـذودُ

الطـائراتُ محوِّمـاتٌ حولَهـا   والزاحفـاتُ صِراعُهُـنَّ شـديدُ

ولقـد شـهدتُ جُموعَهـا وثّابـةً   لـو كـان يـدفعُ بالـصُّدورِ حديـدُ !

* * *

وَيـحَ الجُنـاةِ عـلى الـشآمِ جنايـةً   تيمـورُ ضـاقَ بمثلهـا ويزيـدُ

جَهَروا بتحريرِ الشعوبِ وأثقلَـت   مـتنُ الـشعوبِ سلاسـلٌ وقيـودُ

كـم أَنَّـةٍ بلـغَ الـسماءُ دويُّهـا   مـن أمـةٍ تفنـى أسـىً وتبيـدُ

رِيعَ الفضاءُ لها ، فجلجلَ قاصفٌ   وتزلزلـت أرضٌ وخـرَّ مَـشيدُ !

* * *

خَدَعوكِ يا أُمَّ الحضارةِ فارتمت	تجني عليكِ فيالقٌ وجنودُ
« قرآنُ أحمدَ » إن بكاكِ فقد رثى	لكِ قبلَهُ الإنجيلُ و التَلمودُ

* * *

مَن ذا يُكفكفُ أدمُعاً مُهراقَةً	كالغيثِ تهطِلُ حَسرةً وتجودُ
تُسقى بها في الغوطتين مباسِمٌ	ذهبَ النُّواحُ بمائها وخدودُ
أَحمامةَ الوادي الأغَنِّ تفجَّعي	وتوجَّعي لا يحسُنُ التغريدُ
هلاّ تَلَوتِ على معالمِ جِلِّقٍ	مِنّي التَّحِيَّةَ و المزارُ بَعيدُ
لم أسلُها ، و حَبَستُ عنها عبرتي	إني على حُرَقِ الأنينِ جليدُ

* * *

أنا في هواكِ كما يشاءُ هواكِ لي	كلِفٌ بحُبكِ يا دمشقُ ودودُ
لم أنأَ عنكِ قِلىً ولا لِنقيصةٍ	ما أنتِ إلاّ رَبعيَ المحمودُ
ولقد هجرتُكِ حين حاقَ بكِ الأذى	ما للأُباةِ على الهوانِ قُعودُ
أُقصيتُ عنكِ ولو ملكتُ أعنَّتي	لم تنبسط بيني و بينكِ بيدُ
أترينها الأيامُ تجمعُ بيننا	وترينَ عهدَ صفائها سيعودُ ؟
أتضمنا بعد الشَّتاتِ خمائلٌ	ريَّانةٌ و أزاهرٌ و ورودُ ؟

* * *

ما لي تُساورني الهمومُ كأنني	هدفُ الليالي والزمانُ يصيدُ
أُمسي وأُصبح كالمدَلَّه حائراً	يعتادُني التأريقُ والتسهيدُ

وعهِدتُني ثبتَ الجنانِ على النوى | والـنفسُ تـضعُفُ تـارةً وتئيـدُ
نـذروا دمـي حَنَقـاً عـلي ، وفـاتهَم | أنَّ الـشقيَّ بـما لقيـتُ سـعيدُ
الله شـاءَ ليَ الحيـاةَ ، وحـاولوا | مـا لم يـشأ ، ولحكمِـهِ التأييـدُ

* * *

قُـل للمُـشيد بـذكرهِم هـلاّ انثنـى | وعليـهِ مـن كلـحِ الـصغارِ بـرودُ
خـان العهـودَ فلـم تـبرَّ يمينُـهُ | وعـلى رؤوسِ الخـائنينَ شـهودُ
في ذمـةِ الأجيـالِ نهـضةُ أمـةٍ | أودى بهـا التهويـلُ والتهديـدُ
وَثِقَـت بعهـدِ الأقويـاءِ فأسـلمَت | هيهـاتَ مـا للأقويـاءِ عهـودُ
مـا سـجَّلَ التـاريخُ عِـبرةَ وأدِهـا | إلاّ ليـنهضَ في الغـدِ المـوؤودُ
إن لم تهُـبَّ غـداً تُخلِّـدُ مجـدَها | فلمجـدِها مـن بعـدِهِ التخليـدُ
والـشعبُ إن عَـرَفَ الحيـاةَ فـما لـه | عـن دركِ أسـبابِ الحيـاةِ محيـدُ..!

مصر ٢٠ /٨ /١٩٢٠

فِيمَ الوَنى

فيمَ الونى وديارُ الشامِ تُقتسمُ ... أين العهودُ – التي لم تُرعَ - والذممُ؟
هل صحَّ ما قيلَ من عهدٍ ومن عِدةٍ ... وقد رأيتَ حقوقَ العُرب تُهتضمُ
ما بالُ بغدادَ لم تنبِس بها شفةٌ ... وما لبيروتَ لم يخفق بها عَلَمُ !
ويلمّها نكباتٍ كلُّها ظُلَمٌ ! ... وقد تنير صراطَ السالكِ الظُّلَمُ!
أَللعصورِ على أبناءِ (آسيةٍ) ... ثأرٌ ، فتخشعَ للأعصارِ تحتكمُ
سَل عهدَ «غسانَ» هل من عثرةٍ ... ليست تقُال؟ - وما من عثرةٍ لهمُ!
أكان باللهِ جُرماً غير مُغتفرٍ ... لآل «عدنانَ» أن سادوا وأن حكموا
نُسامُ خسفاً ونُقصى عن محجَّتنا ... ويوُثَقُ الفم حتى تخفتَ الكلمُ
نسجو على الضَّيم والأطماعُ حائمةٌ ... ونكظِم الغيظَ والأكبادُ تضطرِمُ
وُعودَ «وِلسن» كم أضللتِ من فئةٍ ... لأنتِ أشأمُ ما سِيست به الأممُ
خدعتِنا، فانخدعنا، فاستخفَّ بنا ... شُمسٌ عن الحقِ في آذانهم صممُ
أَيدَّعون حقوقاً في مَواطننا ؟ ... والمينُ أقبحُ ما يُطوى عليه فمُ !
ذُدنا عن الملك بالأقلامِ مُعرِبةً ... عن القلوب وفي طياتِها ألمُ

عسى يثوبُ إلى نور الهدى جَشِعٌ شكا الطوى، فهوى كالموتِ، يلتهمُ!
أَليَّــةً بــسماءٍ ظللّــت وطنــي وأنبتـت عـشبه بالغيـثِ ينسجمُ
لـئن تولّـوا رعينـا حُـسنَ وُدِّهـمُ وصِينَ منهم ومنا في العـروقِ دمُ
وإن تـأبَّوا فـإن الـسيفَ ينُـصفُنا والـسيفُ يبلـغُ مـالا يبلـغ القلـمُ !
إنّــا لنُقــدم والأشــلاءُ ناهــدةٌ في الجو ، تعبَثُ فيها الريحُ والنَّسمُ
لا ننثنـي عـن منُانـا أو يحِـلَّ ردىً لا شـارخٌ منـه بالنـاجي ولا هَـرِمُ
إن لم يكن في حياةِ المرءِ مـن شرفٍ فإنهـا بـالردى قـد تَـشرُف الـرمَمُ!
لا يُطمـعُ القـومَ فينـا لـينُ جانبنـا وليذكروا أن عُقبى الطـامعِ النـدمُ
مـن حـاولَ الأمـرَ لم يـسبرُ عواقبَـهُ أصابَ من لطخاتِ العارِ ما يصِمُ
ومـن أغـارَ عـلى شـعبٍ ، ليملكَـه قبلَ القلوبِ ، تولَّى وهـو منهـزمُ

* * *

متـى يُحـرَّرُ شـعبٌ - لاقـرار لـه على الهوان - بحبلِ الحقِ معتصمُ
لــه غــرامٌ بالاســتقلالِ ينـشُده يأبى عليه سواهُ الـرأيُ والـشَّممُ
يهوى الحيـاةِ ومـا يـرضى بهـا بـدلاً ولا يُلَــمُّ بــه في سَــومها سَــأَمُ

* * *

يا نابضاً فيـه عـرقٌ مـن بنـي مُـضَر أسرج جيادكَ ولتُطلـق لهـا اللُّجُـمُ
واشحذ غراركَ لا يعلـق بـه صـدأٌ فـإن يَجُـرّ حَكَـمٌ فالـصارمُ الحكَـمُ

كفكف دموعَ فلسطينٍ وجارتها بيروتَ ، و اكفُف يداً في بسطها النقمُ
بنـي أبي يـا وقـاكم كـلَّ عاديـةٍ مَن بيتُه الكعبةُ الحمساءُ والحرمُ
تـأهبوا لقـراعِ الطـامعينَ بكـم ولا تغـركمُ الآلاءُ والـنعمُ
سـيروا رويـداً إلى تنظـيمِ أمـركم لا يـصلح الأمـرُ إلا حـين ينـتظمُ
وأقسِموا لا افترقتم يـومَ ملحمـةٍ ولا ونُيتم - عساه يـصدق القـسمُ

دمشق٢١ /١١ /١٩١٩

للّه، للأيــام ....

لي بـالحوادثِ والنوائـبِ مطمـعُ لا الـدهرُ يمنعنـي ولا أنـا أقنـعُ
تتقلَّــبُ الأيــامُ بي ، فتكيــدُ لي وأكيـدُ ، وهـي بـأن تنُـاجِزُ أُولـعُ
يـأبى عـليَّ الهـونَ ، حـين تثـور بي أنيّ مُــلاقٍ بعــضَ مــا أتوقَّــعُ
ويـصونُ عـزّةَ كـلِّ نفـسٍ صـبرُها للفادحــاتِ و مُــرِّ مــا تتجـرَّعُ
لا يخــدعنَّك صــالحٌ في قومِــهِ مــا في البريَّــةِ صــالحٌ لا يَخـدعُ
وأرى المَواطنَ كالرجـالِ ،حميدُها وذميمُهــا والــصُّلبُ والمتــصدّعُ
لا خـيرَ في وطـنٍ ينالُـكَ ضـيمُهُ إنَّ المَــضيمَ بأهلــه لمــضيَّعُ
انـزح وحـسبُك بـالحنينِ مُواسـياً ترتـاحُ فيـه إلى الـسكونِ الأضـلعُ
لـولا الحنـينُ لمـا بكيـتُ أحبـةً كانــت تـضمُّهمُ دمـشقُ وتجمـعُ
لـولا الحنـينُ لمـا بكيـتُ لياليـاً كانــت دمـشقُ بهـا تجـودُ وتمنـعُ
لـولا الحنـينُ إلى دمـشقَ وأهلِهـا جَفَّـت بمقلتـي الـشؤون الهُمَّـعُ
لـولا الحنـينُ لمـا بكيـتُ بجِلّـقٍ (قمـراً يغيـبُ وألـفَ بـدرٍ يطلـعُ)
لـولا الحنـينُ لمـا غـضِبتُ لأمـةٍ في الـشام ذارفـةٍ عليهـا الأدمـعُ

للهِ ، للأيامِ ، ما صنعت بها … أيدي العُداة وما ستوشكُ تصنعُ

للهِ ، للأيامِ ، ما أبكي لها … أنا ذلك المتفجِّعُ المتوجّعُ

* * *

مَن مُبلغٌ عني ديارَ صبابتي … وأحبُّ ما أحببتُ تلك الأربُعُ

أنى سئمتُ إقامتي في مَوطن … ذَلَّ الأعزُ به ، وعزَّ الأوضعُ

بلدٌ أُحيطَ بشامخاتٍ صُعَّدٍ … نحو السماءِ هي الجهاتُ الأربعُ

تَرِد القلوبُ عليه وهي خوافقٌ … وتعودُ وهي من الأسى تتَقَطَّعُ

لولا منازلُ كاللُّحودِ تغلغلت … في جوفه ما قيل إلاّ بلقعُ

الوحشُ ينفر منه حين يرَودهُ … والطيرُ تُعوِزه الحياةُ فيُقلعُ

كالسجنِ إلاّ أنَّ ذلك ضجعةٌ، … كالقبرِ إلاّ أنَّ ذلك أوسعُ

كاليأسِ إلا أنَّ ذلك راحةٌ ، … كالموتِ إلاّ أن ذلك أجمعُ

* * *

عامانِ في عمّان أيسرُ منهما … حملُ القيودِ ومنتفىً مُتفظَّعُ

أرغمتُ أنفيَ صابراً متجشِّماً … ألقى بها مُتحوِّلاً وأُودّعُ

حُشرت بها من كلِّ موطن عزة … فئةٌ لها في كلِّ أمر إصبعُ!

وتَوافدَ المتوافدون ، فمُشتكٍ … مُتظلمٌ ومروِّع ومروَّعُ

وإذا بعَمّان ومَن يسمع يَخَل … بلدٌ تُحط به الحال وتُوضعُ

لولا البقيةُ من أماني أنفسٍ … مُلتاعةٍ ، لتفرِّقَ المُتجمِّعُ !

أملٌ يلـوحُ بهـا ، وقـد لا تـنجلي عـن واضـحٍ سُـحبٌ ولا تتقـشّعُ
فاصــبر لهــا فلعــلَّ برقــاً يلمــعُ وتخـلَّ عنهـا حـين يبـدو اليلمـعُ
وامضِ الهُوينا يتـصل بـك سيرُها بعـضُ السبيلِ يخيـبُ فيـهِ المُسرعُ
قد ييأس الماضي العزيمةَ جاهداً ويُؤمِّـــلُ المتمهّـــلُ المُتـــذرّعُ
ما في الهَوادةِ ، لو دريـتَ غـضاضةٌ أَنـف الغـضاضةِ في الهـوادةِ أجـدعُ
خُذ في يديكَ زمـامَ أمـرِكَ إن تُطـع أو فـانفرد ، شرُّ الرجـالِ الإمَّـعُ !

عمان ١٥ /٣ /١٩٢٢

غــزلٌ

تِه، طالَ تَهطالُ دمعي في هوى الغِيدِ — وبالنوى ونُـواحي طـالَ تـسهيدي
يا زائدَ الصَّدِّ صادت مُقلتاكَ فتىً — فَتنتَــه بجــمالِ الخــالِ والجيــدِ
علّمتَني بالنَّوى حُكم الهوى فلمن — أشكو الجوى وتباريحي وتنكيـدي
ليَ الأنينُ، وللقلبِ الحنينُ،وللعين — الهتــون وتحديــدُ الأخاديــدِ
يامن جعلـتُ قيـادي في الغـرامِ لـهُ — أَطلقتني للضَّنى فـامنُن بتقييـدي
وَحَّدتني في الهوى العُـذريّ يا غـصناً — لـولا تَثَنّيـهِ لم أُعـرف بتوحيـدي
كُحلٌ بعينيكَ أم سحرٌ ملكـتَ بـه — القلـوبَ مُلـكَ سـليمانَ بـن داوودِ
يـا مـن سَـكِرتُ بـه حباً فـأثملني — بريقـهِ العَـذبِ لا بنـت العناقيـدِ
سلِ الكواكـبَ عمَّن بـاتَ يُقلقهـا — نــشيجهُ فهــي أدرى بالمفائيــدِ
رَقّت ليَ الطيرُ في أوكارِها وشدت — تحنــو عــليَّ بترديــد الأغاريــدِ
ترتـدُّ بعـضُ سهامِ الـرَّوعِ طائـشةً — وللَّــواحظ ســهمٌ غــيرُ مــردودِ
من كان يشكو إسارَ البيضِ مُرهفـةً — لقد شكرتُ إسـار الأعـينِ الـسُّودِ

(من نظم الصب) دمشق ١٩١٢

الشـــهداء

نظمت وأخفيت، على أثر إعدام الترك فريقاً من شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز

نعـى نـادبُ العُـرب شـبانهَا ... فجـدِّد بـالنَّعي أحزانهَـا
بكـى كـلُّ ذي عـزةٍ تِربَـهُ ... وهـاج نـزاراً وعـدنانهَا
فَمَـن للمـدامعِ ألاّ تفـيضَ ... وألاّ تُـوالِيَ هَتانَهـا
وَمَـن للأضـالعِ ألاّ تفـيضَ ... وقـد نـاءتِ الـروحُ جُثمانَهـا
وهـل لـدمِ الحـرّ ألاّ يثـورَ ... ويـدفعَ للحـربِ فرسـانهَا
فجـائعُ ، هُـنَّ حـديثُ القلـوبِ ... وهيهـاتَ تـسطيعُ سُـلوانها
وقفـتُ أسـائلُ أهـلَ العـراءِ ... حُـداةَ النّيـاقِ وركبانَهـا
عـلامَ الكواكـبُ مـا تـستبينُ ... وقـد غـيَّرَ الـدهرُ ألوانَهـا
عـلامَ تـئنُّ ريـاحُ الجنـوبِ ... أنـينَ المـضيعةِ مِعوانَهـا
وفـيمَ تنـوحُ حمـامُ الـشآمِ ... فتُـشجي وتقلِـقُ أغـصانَها
ومـمَّ تلبَّـدَ وجـهُ الـسماءِ ... فـصبَّت عـلى الأرضِ نيرانَهـا

دعــا مُوقــدُ الحــربِ أبطالهــا   حُمـــاةَ الـــديارِ وفتيانَهـــا

وَثَـــوَّبَ ينـــدبُ للعـــالمينَ   عيـــونَ الربـــوعِ وتيجانَهـــا

فـأبكى عــلى غُــررِ المــسلمينَ   أبـــاةِ المذلَّـــةِ وقرآنَهـــا

وأبكـى عـلى آل عيـسى المسيــ   ـــحِ شـمِّ العـرانينِ صُـلبانَهَا

نَعَـت لغـةُ العُـرب مـن أحكمـوا   لـــسانَ قـــريش وتبيانَهـــا

وناحـت عـلى مـن بنَـوا عزَّهـا   وأعلَـــوا بـــها أثلَّـــوا شـــانَهَا

أثـارَ بنـي هاشـمٍ في البطـاح   وأنطـــقَ في الـــتُّرب حَـــسَّانَهَا

دعَـوا بـالخيولِ وأهـلِ النـصولِ   وأشرعـــت الـــرَّوعُ مُرَّانَهـــا

كتائـبُ هبَّـت تلبـي الـدُّعاءَ   وتطـــوي القفـــارَ وكثبانَهـــا

بـرمحٍ يــرنُّ وعَـضبٍ يـئنُّ   يُنبّـــه في الـــترك وَســـنانَهَا

هــو الثــأرُ أدركَــه الثـائرونَ   أشـجى « فروقـاً » وسـلطانَهَا

و أنعـشَ أرواحَ مـن في القبـورِ   فكـــادت تُعـــاوِد أبـــدانَهَا

أطلَّـت ترفـرفُ فـوقَ الجمـوعِ   تُحَيّـــي مـــن الغيـــبِ أوطانَهـــا

* * *

جُـــذوعَ المظـــالمِ لـــو تنطقـــينَ   قَرَّحَـــت في النـــاسِ أجفانَهـــا

سَيُومض في النـاسِ بـرق الـسلام   وتـــسلو النـــوادب إرنانَهـــا

دمشق ١٩١٦

الغـــد

ألقيت في حفلة أقامتها كلية البنات الأمريكية بمصر.

خُذ في حديثِ غدٍ وما يتلو غَدا ... مُتجــدداً إنَّ الزمــانَ تجــدَّدا
أسدِل على الماضي الحجابَ فإنَّهُ ... زمــنٌ تنــاثرَ عِقــدهُ وتبــدَّدا
ما أمسِ ما آثار أمسِ ، وأهلِهِ ؟ ... عـبرٌ أمرَّتها العـصورُ، لِتشهدوا
يُصبيكَ مشهدُ توتِ عَنخَ، ولم يكُنْ ... إلاّ صدى الأمسِ القصيّ مُردَّدا
ويروقُكَ الهرمُ المشيدُ، ولم يلُح ... إلاّ لتــذكرَ مــن بنــاه وشــيَّدا
الأمسُ عِبرة ذاكرٍ، واليوم عبــ ... ـرةُ شاهدٍ، وغداً لمن يطوي الغدا
إن كنتَ متَّعِظاً فحولكَ واعظٌ ، ... مما ترى ، أو أنت مُلمِسُه اليدا
جهرُ الحقيقةِ مُسكِتٌ ما دونها ... والصوتُ إن بلغَ القلوبَ تمرّدا
ما المرءُ سدَّد في الظلامِ سهامَه ... كالمرءِ لاحَ له الضياءُ فسدَّدا
المصلحون ، لهم إلى إصلاحهم ... سُبُلٌ، وكم من مُصلحٍ قد أفسَدا
والناسُ في الغدواتِ والرَّوحاتِ، ما ... برِحوا لأوهامِ الضلالةِ أعبُدا
إنَّ الأباطيــلَ التــي جمعــتهُمُ ... أو فرَّقت ، ليست عليهم سرمَدا

مـا كـان للزهـراتِ لـو لا أَنهـا		هتكَت حجابَ الكـمّ أن تتوردا

* * *

يـا أيهـا الـشبحُ المـدلُّ برأيـهِ		والمـستزيدُ مـن الفنـونِ تـزوُّدا
أجهدتَ نفسَك باحثاً عن كُنهِها		وقُصارُ نفسكَ أن تجِدَّ وتجهـدا
لـكَ في الحيـاةِ حقيقـةٌ مجهولـةٌ		والحـقُّ يـأبى فيـك أن يتعـدَّدا
حرَّرتَ جسمَك من إسارِ قيودِه		ومتـى تُحـرّر عقلـكَ المـستعبَدا؟
ما كان من سننِ الطبيعةِ أن ترى		خطرَ الجمودِ على القديمِ ، وتجمُدا
ابـنِ الـدعائمَ للحيـاةِ فـما غـدٌ		بـالُمكفهرّ وإن رأيـتَ تلَبُّـدا
ودِعامـةُ الغـدِ دارةٌ حُجُراتُهـا		تُؤوي الرَّشيدَ وتحضُنُ الُمسترشِدا
ألِـم بهـا وأطِـف وطـأطِئ حرمـة		حيـثُ الجبـاهُ حَريَّـةٌ أن تـسجُدا
أُمَّـانِ مـا نيطَـت بغيرهمـا الُمنـى		حَـفَّ الجـلالُ سـناهُما الُمتوَقّـدا
أُمٌّ يُـراحُ إلى ظِـلالِ حَنانِهـا		والـنَفسُ والهِـةٌ ، وأُمٌّ يُغتـدى
إنَّ التـي هـزَّت سريـرَ وليـدِها		لِتهـزَّ فيـهِ العـالمَ الُمتوسِّـدا
هـي آيـةُ المـاضي وَحُجَّتُـهُ عـلى		الآتي وأبلغُ قُدوةٍ لمن اقتدى
أُنشودةُ السَّحَر البهيجِ، وَشدوةُ الـ		ـرَّوضِ الأريضِ إذا ترنَّمَ أو شَدا
أُغنيَّـةُ الـزَّمنِ الُمرجَّـعِ لحنُهـا		وأرقُّ مـا غنَّـى الزمـانُ وأنـشدا
رقَّت شعوراً ، واسترقَّت حِكمةً		وَحَنـت مهذَّبـةً ولاحـت فَرقَـدا

إنَّ الفتـاةَ إذا تكحَّـلَ جَفنُهـا		بـالطُّهرِ ، كانـت للنـواظرِ إثمِـدا
وإذا الفـضيلةُ أوَّدت أعطافَهـا		زهــواً تبــاركَ عِطفُهــا مُتــأَوِّداً
إنَّ ابنــةَ اليــومِ المُقلَّــدَ لُبُّهــا		عِلــماً لَأَحمَــدُ في الغَــداةِ تَقلُّــدا

* * *

يــا أيُّهــا الآتي تَنــاءَ أو اقــترب		وانشُر مَداكَ أو اطوِ منشورَ المدى
ما هالَ من ركبوا إليكَ مَطيَّهم		في الغيبِ أن تعيا خُطاكَ فتبعُدا
مـا أنـتَ مُـدَّخِرٌ لأهلـكَ مـن يـدٍ		تُسدى فتشكُرَها الفئاتُ وتحمدا
زعموا الحياةَ بكَ الغداةَ رضيَّةً		لا شــاكياً شَــجَناً ولا مُتَوجِّــدا
وتوقَّعوا موتَ المَنونِ ، فشاقَهُم		أن تُستعادَ قُوى الحَياةِ فتَخلُدا

* * *

أَتُرى تظلُّ قوىً تكافِحُها قوىً		أيامَ لا حتفٌ يروعُ ولا ردى
ويظلُّ فيكَ زِمامُ شعبٍ في يدٍ		تقتــادُهُ أنَّــى تــشاءُ مُــصَفَّدا
ويظلُّ فيكَ لواءُ شعبٍ خافقاً		في غــيرِهِ مُتوَعِّــدا مُتهــدِّدا
و يُمدّ في آجالِ من فُطروا على		خِــيمِ الأذاة ، تــصدِّياً وتعمُّــدا
وَيَــذِلُّ فيـكَ الأكرَمـونَ زهـادةً		وَيتيـهُ فيـكَ الألأمـونَ تمجُّـدا
إنّي لألمــحُ فيــك سِــلماً دائــماً		والسِّلمُ إن كَفَّ الطُّموحُ توطَّدا
وَيلوحُ لي فيكَ القليلُ تَوعُّدا		وأراكَ في العصرِ الكثيرِ تودُّدا

وَإخالُك النُّعمى الشَّمُولَ عميمةً والعيشَ مأمونَ الغوائلِ أرغَدا

* * *

أَسعادةُ الغدِ ! شارقاً أو بارقاً لا تُيئسي المترقِّبَ المترصِّدا

اليأسُ أقتلُ للنفوسِ ، وربما ثارَ اليؤوسُ فكانَ أظفرَ بالجَدا

في كلِّ قلبٍ غُلّةٌ وصدىً إلى آمالِهِ وَالرِيُّ أنتِ من الصَّدى

وبكلِّ قلبٍ من جَواهُ جراحةٌ هلاَّ مدَدتِ لها يديكِ فتُضمَّدا

* * *

صبراً فإنَّ لكلِّ أمرٍ منتهى إن صحَّ أنَّ لكلِ أمرٍ مبتدا...

بـــردى

جاء في جريدة«المفيد» الدمشقية بتاريخ ٥ آذار ١٩١٩:

«فـاض بـردى فانقلـب المـرج الأخـضر وسـاحة الـشهداء بحـراً متلاطماً يروع الأفئدة» .

وعلى شرفة النادي العـربي ، جلـس أحـد صـاحبي هـذه الجريـدة (الشاعر) ينظم القصيدة التالية:

بــردى أطلــت عــلى الرّبــوعِ تمــرّدا
رُعتَ القلوبَ و كنتَ تَعذُبُ مَورِدا

قالوا: غضِبتَ فجئتَ تُنذرُ أمـةً عَصَت الحجى، و أبت تُطيعُ المُرشِدا
أقبلـتَ تُـذكِرُها الكـوارثَ مُرغيـاً مُتلاطِمَ الأمـواجِ تخفُق مُزبِـدا
أَتُعيـدُ فينـا عهـدَ« نـوحٍ » ثانيـاً أم أنـتَ تـضربهُ لقـومِيَ موعِـدا
ويحي وَويحكَ ما صنعتَ بِجيرةٍ قد كنتَ تُرويها و تُؤمنُها الـصَّدى
أنكثـتَ عهـدَ جوارِهـا فـدهمتَها بالـسيلِ لا يرعـى لِـربِّ يـدٍ يـدا
وشـهدتَ شـاهقَها ترفَّـعَ شـامخاً فأبيــتَ إلاّ أن يَخِــرَّ ويــسجُدا
َطغَـتِ الميـاهُ ، فـلا سـبيلَ لـرائحِ سهلَ المجازِ ، ولا سـبيلَ لمـن غـدا

حِتَّامَ تجـري في محاسـنِ دُورِهـا   سـكرانَ مـن خمـرِ الأذاةِ مُعَربِـدا
كـالجيشِ لاحَ لـهُ فِـرارُ عـدوِّه   فأغـارَ يَقحَـمُ هاويـاً ومُـصَعِّدا

* * *

لاموكَ أن جُزتَ الحدودَ وأكثَروا   لـو أنـصفوا لم يحبِسُوكَ مُصفَّدا
هُـم قيَّدوك فـما أطقـتَ قُيـودَهم   والحُـرُّ يـأبى أن يعـيشَ مُقيَّـدا
يـا ساحةَ الـشهداءِ مـا لي لا أرى   للـسالكينَ الـنَّهجَ فيـكِ مُعَبَّـدا
أبُحيرةَ «العاصي» غدوتِ؟ وإنما   بكِ أُطلقت أرواحُ أربابِ الهُدى
سَفَكَ البُغاةُ بكِ الدماءَ وشيَّدوا   صرحَ المظـالمِ في حِمـاكِ مُمَـرَّدا
مـاءٌ تـدفَّقَ في رِحابـكِ لـو جـرى   فيـهِ الـدمُ المُهـراقُ أمـسِ، تـورّدا

دمشق ١٩١٩

بين الدم والنار

ألقيتُها في حفلة أقامها السوريون في القاهرة بعد ضرب الفرنسيين دمشق بالقنابل.

الأهلُ أهلي والديارُ دياري   وشعارُ وادي النَّيربينِ شعاري
ما كان من ألمٍ بجِلّقَ نازلٍ   واري الزِّنادِ، فَزَنده بي واري
إنَّ الدَّمِ المهراقَ في جَنَباتها   لَدَمي وإن شِفارَها لشِفاري
دمعي لما مُنيَت به جارٍ هُنا   وَدَمي هُناك على ثَراها جاري

* * *

يا وامضَ البرقِ اطمئنَّ وناجِني   إن كنتَ مُطَّلعاً على الأسرارِ
ماذا هناك ؟ فإنَّ صوتاً راعَني   وَالصوتُ فيه جفوةُ الإذعارِ
النارُ مُحدِقةٌ بجِلّق بعدما   تُركت «حَمَاةَ» على شفيرٍ هارِ
تنسابُ في الأحياءِ مُسرعةَ الخطى   تأتي على الأطمارِ والأعمارِ
والقومُ مُنغمِسونَ في حَماتها   فتكاً بكلِّ مُبَرَّأٍ صبَّارِ
الطفلُ في يدِ أمّهِ غَرَضُ الأذى   يُرمى وَليسَ بخائضٍ لغمارِ

والـشيخُ مُتكئـاً عـلى عُكَّـازِه		يُرمـى ، ومـا للـشَّيخِ مـن أوزارِ
صَبرَت دمشقُ على النَّكالِ لياليـاً		حَـرُمَ الرُّقـادُ بهـا عـلى الأشـفارِ
لَهفـي عـلى المتخلّفـين برُحبِهـا		كيـف القَـرار ولاتَ حـينَ قـرارِ
يترقبَّـونَ المـوتَ في غَـدَواتهم		وَإذا نَجَوا فالموتُ مـن الأسـحارِ
لا يعلمــونَ أَفي سَــوادِ دُجُنَّــةٍ		هُــم سُــهَّدٌ أم في بيـاضِ نهـارِ
الوابلُ المِدرارُ من حُمَمِ اللَّظى		مُتواصِــلٌ كالوابــلِ المِــدرارِ
والظُّلـمُ مُنطلـقُ اليـدينِ مُحَكَّـمٌ		يا ليتَ كلَّ الخَطبِ خَطبُ النارِ

* * *

أَمَجـالسَ الـسُمَّار ضـاحكةً بهـم		ضحِكَ الهوى . ما حلَّ بالسُمَّارِ
أَمَعاهـدَ الأدبِ الظّريـفِ ثكِلتِـهِ		غَـضَّ الـصبَا كتفتُّح الأزهـارِ
أَمَّ القُــصور نــواعماً ربَّاتُهــا		مــا للقــصورِ دواثــرَ الآثــارِ
أُمَّ الجنـانِ ، الكاسياتِ رياضُـها		حُلَلَ السنا ، ما للرِّياضِ عواري
أُمَّ الحيــاةِ ، وللحيــاةِ نعيمُهــا		هـل في ديـاركِ بعـدُ مـن دَيَّـارِ
زهوُ الحضارةِ أنتِ مَطلَعُ شمسِه		أفتغتــدينَ وأنــتِ دارُ بَــوارِ
ويَحَ الحضارةِ كيف يمتهنُ اسمَها		مُتكالبون على الضِّعاف ضواري
هُم أوردوكِ وأصدروكِ على صدىً		فشقيتِ من الأيـرادِ والإصـدارِ
هُم أحرجوكِ فأخرجوكِ مَهيجةً		فَـصَرَختِ فـيهم صرخـةَ الجبَّـارِ

طالَت لياليكِ الثلاثُ وإنَّما في مثلهنّ يلوحُ نهجُ الساري
وإذا الظلامُ عَتا تبَلَّجَ فجرُهُ: ظُلم الحوادثِ مَطلعُ الأنوارِ
ما انهارَ قصرٌ في حِماكِ مُمَرَّدٌ إلاّ ليُرفَعَ فيكِ قصرُ فَخَارِ
ما دمَّروكِ هُمُ ولكن دمَّروا ما كانَ فيكِ لهم من «استعمارِ»
حَمَلوا عليكِ مُوائبينَ وما لهم ثأرٌ، وَثُرتِ وأنتِ ربَّةُ ثارِ
ما ينقِمون عليكِ إلاّ أنهم شَهدوك غيرَ مَقُودةٍ لصَغَارِ
فإذا المنازلُ وهيَ شامخةُ الذُّرى مُنهارُ أطلالٍ على مُنهارِ
وَإذا المدينةُ «تدمرٌ» أو «نِينوى» أنقاضُ عُمرانٍ وَرَسمُ دمارِ

* * *

قُم سائلِ الأجيالَ يا ابنَ نسيجِها واستوحِ غامضَ سرِّها المُتَواري
فلَعَلَّ عِبرةَ مجتلي صفحاتِها فيها محاهُ الدهرُ من أسطارِ
إنَّ الشُّعوبَ لَتَستَفيقُ إن انتَشَت والصَّحوُ غايةُ نشوةِ الإسكارِ
أرأيتَ كيفَ طغى الفِرنجُ وأوغَروا صدرَ الأسِنَّةِ أيَّما إيغارِ
أرأيتَ كيفَ استُهتِروا بمطامعٍ فيها المَصَارعُ، أيَّما استهتارِ
الشرقُ بينَ قَوِيّهم وضعيفهم مُتداولُ الأنجادِ والأغوارِ
وبنوهُ بينَ وعيدِهم وَوُعودِهِم شتَّى المذاهبِ شُرَّدُ الأفكارِ
لا تأمننَّ فأنتَ بينَ مُكافحٍ منهم وبينَ مُخادعٍ غَرَّارِ

وانظر إلى الآلافِ من بُسَلائِهم يَعــزوهُم مئــةٌ مــن «الثــوار»
مـن كـلِّ مِغـوارٍ صَـليبٍ عـودُه يقتــادُ كــلَّ مــدجَّجٍ مِغــوارِ
الــواثبينَ إذا يُقــالُ : تــأهَّبوا والقــاحمينَ إذا يُقــالُ: بَــدارِ
إن أنَصفت أيّامُ «ذي قـار» ، لنـا سَلَفاً فنحنُ اليـومَ في «ذي قـارِ»
طارت بألبابِ الفِرنجةِ صيحةٌ في الشَّامِ ، فانـدفَعوا إلى الأسـوارِ
وَعَدَوا على الأطفالِ في حُجُراتِها والمُطفِلاتِ وهـنَّ في الأخـدارِ
عَمُّوا بمُضطَرِب القذائفِ كـلَّ ذي ضَعفٍ ، وخَصُّوا كلَّ ذاتِ إزارِ
سَتَروا بـضربِ الآمنينَ فِرارَهُم فاعجَـب لعـارٍ سَـتَّروه بعـارِ!

* * *

غَضِبَت لـسوريَةَ الـشَّهيدةِ أُمَّـةٌ في مـصرَ تُطفـئُ غُلَّـةَ الأمطـارِ
وَرَعَت لها ذِممُ الوفاءِ فلم يَضِع عهــدٌ تسلــسلَ في دمِ الأعــصارِ
للهِ والتــاريخُ والــدم واللُّغــى حَــقٌّ وللآمــالِ والأوطــارِ
تـأبى الجماعـةُ أن تهـونَ لغاصـبٍ والفــردُ موقــوفٌ عــلى الأقــدارِ
وإذا العُرى انفصَمَت تولَّى أهلَها ضَـيمُ المُغـيرِ بخطبـهِ الكُبَّـار

* * *

يا ابنَ الكِنانةِ ما الجِـراحُ دوامياً في الـشَّامِ إلاّ في طُـلى الأحــرارِ
المــشترينَ ديــارَهُم بــدمارِهِم وَهُـم يـرون بـه رَبـاحَ الـشاري

أنِفوا حياةَ الشاءِ ، كلَّ عشية وَضُحىً تعيثُ بها يدُ الجزارِ

هلاَّ نظرتَ إلى الشَّآم فإنها ترنو إليكَ بشاخصِ الإبصارِ

ناءَت بحَمل نُكُوبِها فَتَقَلقَلَت مَوجاً بأطفالٍ هناكَ صغارِ

ليسَ الجوارُ إذا عدلتَ بمقنعٍ يأبى الشَّقيقُ عليكَ حَقّ الجارِ

القاهرة ١٩٢٥

حنـــين

أرسلت من بعلبك إلى صديقين في دمشق.

باتَ يرعى النجمَ والنجمُ مُطِلٌّ		والجوى يُسهر والحبُّ يُذلُّ
ذكرَ «الشامَ» فأجرى دمعه		مستهلاً ، وله في الشامِ أهلُ
أيها الظاعنُ يرتادُ الرُّبى		وله أنَّى أناخَ الظَّعنَ نُزلُ
عُج على الشام وبلّغ من بها		نبأً عن مُستهامٍ ليس يسلو
واقرإِ الآلَ سلامي ، وادعُهم		فإذا أصغَوا لأنبائي ، فاتلُ:
آه ! و احيرةَ مضنىً حلَّ في		« بعلبك » حيثما سار يَضِلُّ !
تَخِذَ الشَّوقُ بجنبيّ له		مُستناخاً فإذا أهلٌ وسهلُ !
يا ليالِيَّ بوادي «جِلّقٍ» !		هل تُرى يتبعُ منك الوصلَ وصلُ؟
و جِنانَ (السَّفح) و(الرَّبوةِ) من		كان يدري أنني عنك أُغَلُّ!
لِي حديثٌ «عنعنته» روضةٌ		عن رُبى الفردوسِ، لم يجرحه نقلُ!
زعمت أنَّ لربي جنَّةً		في فسيحِ الأرضِ تُؤوي وتُقِلُّ

حــدَّها الأقــصى « منــينٌ » فــإذا أقبَـلَ المُقبِـلُ راقَ العـينَ « تَـلُّ »
جنَّـــةٌ في « قلمـــونٍ » زانَهـــا جدولٌ يجري و « صفصافٌ » يُظِلُّ
لـستُ بالجاحـدِ مَعنـى حُـسنها وعِقابُ الجاحـدِ الكـافرِ قَتلُ !

* * *

يـــا خلـــيليّ ! اذكـــر بـــالله إن جُزتمـا « دمَّـر » مَــن كــان يَحِـلُّ
اذكـــرا خِــــلاًّ ، وفيّـــاً لكـــما حِـينَ لا يَحفـظُ عهـدَ الخِـلّ خِـلُّ

المحتوى

الصفحة

مختارات من ديوان الزركلي

الطبعة الأولى /٢٠١٧م